

الكتاب رقم
(٢)

موسوعة تعظيم أعلام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الإخلاص والتوحيد



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

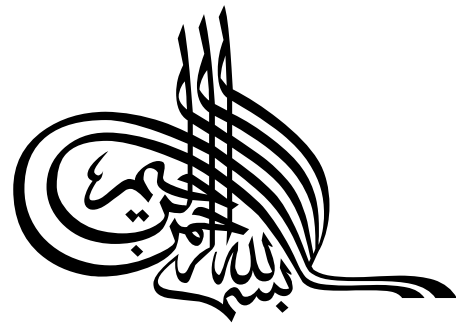
الكتاب رقم (٢)

التوحيد والإخلاص

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٧	التعريف.....
١٢	الكلام في حديث «إنما الأعمال بالنيات».....
١٨	لا غنى للعبد عن التوحيد والإخلاص.....
٢٨	اقتضاء القول للعمل.....
٣٧	الإخلاص التام.....
٤٥	وسائل تحقيق التوحيد والإخلاص.....
٤٥	أولاً: قطع الطمع في الخلق:.....
٤٧	ثانياً: التخلص من رؤية العمل.....
٥٠	ثالثاً: التخلص من طلب العوض على العمل:.....
٥٠	رابعاً: التخلص من رضاه بعمله وسكونه إليه:.....
٥٢	خامساً: تذكر ما عند الله من المعية والجزاء:.....
٥٤	سادساً: العناية والرعاية لأعمال القلب تفقهاً وسلوكاً.....
٧٢	سابعاً: الدعاء والالتجاء والضراعة والابتهاال بين يدي الله تعالى.....
٧٤	ثامناً: استصحاب اطلاع الله تعالى على السر.....
٧٤	تاسعاً: تأمل سير وأخبار المخلصين.....
٧٥	عاشراً: الخوف والوجل والإشفاق من آفات الإخلاص.....

٩٤	إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا
١٢٦.....	صفات المنافقين
١٢٩.....	وقفة تأمل



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الأوّل فليس قبله شيء، والآخِر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء. أحمدُه سبحانه وأشكره وأثني عليه الخير كله ولا أكفُرُه، اللهم لك الحمد على نعمة الخلق والرزق والإنسانية وأن جعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وخصصتنا بهذا الدين القويم والكتاب المبين والمنهاج المستقيم، اللهم اهدنا صراطك المستقيم، وأجرنا من شرّ أنفسنا والشياطين، سبحانه لا نحصي- ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأنت على كل شيء قدير.

أما بعد، فإنّ أصل الأصول وأساس الأركان ومبدأ الدين ومنتهاه هو توحيد الله رب العالمين وإخلاص الوجه للحي الدائم القيوم ذي الجلال والجمال والكمال والإكرام. وإنّ أمرًا هذا شأنه حقيق بكلّ مكلف أن يجعله في المرصد الأعلى لغاياته، والمحلّ الأسمى لأوليّياته، والحتم اللازم لاهتماماته، ولا غرو فهو مفتاح الجنة، ولا عجب فهو الدين كلّ الدين.

وهذا الكتاب لبيان ما يسره الله وفتح به من أمر التوحيد والإخلاص، جعلنا الله جميعًا من أهل تحقيقها والفوز بمرضاة الله تعالى والزلفى لديه. سائلًا ربي المدد والمعونة والتوفيق، هو حسبي ومُعتمدي ووليّي وكيلي، ونعم

الإخلاص والتوحيد



المولى ونعم الوكيل . وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمي محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين .

إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد الدميحي

١٤٣٦/٨/١

aldumaiji@Gmail.com

التعريف

الإخلاص في اللغة: قال الأزهري: «قال الليث: الإخلاص هو التوحيد لله خالصاً، ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص. والتخليص التنحية من كل منشب»^(١).

وقال ابن فارس «خلص»: «الخاء واللام والصاد أصل واحد مطّرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خلّصته من كذا، وخلّص هو»^(٢).

وقال الجوهري: «خلّص الشيء يخلصه خلوصاً؛ أي صار خالصاً، والإخلاص في الطاعة؛ ترك الرياء»^(٣).

وقال ابن منظور: «خلّص الشيء؛ بالفتح يخلص خلوصاً وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، وأخلصه وخلّصه وأخلص الله دينه: أمحضه. وأخلص الشيء اختاره، وقرئ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] و«المخلصين». قال ثعلب: يعني بالمخلصين الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وبالمخلصين الذين أخلصهم الله عز وجل. وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، والتخليص: التنجية من كل منشب، والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء،

(١) معجم تهذيب اللغة (١٠٨٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣٠٩).

(٣) الصحاح (٣/ ٨٧١).

وخلص إليه الشيء أي وصل»^(١).

وقال الفيروزآبادي: «خَلَصَ خُلُوصًا، وخَالِصَةً: صار خَالِصًا. وأَخْلَصَ لله: ترك الرياء، أما التوحيد فمعناه قريب من الإخلاص»^(٢).

قال الأزهري: «الْوَحْدَةُ: الانفراد. والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد ذو الوحدانية والتوحد، والواحد في صفة الله معناه أنه لا ثاني له، ويجوز أن يُنعت الشيء بأنه واحد، فأما أحدٌ فلا يوصف به غير الله لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه^(٣)، ويقال: أَحَدْتُ الله ووحدته وهو الأحد الواحد، وأما قول الناس: توحيد الله بالأمر وبتفرد، فإنه وإن كان صحيحًا في العربية فإني لا أحب أن ألفظ بلفظ في حق الله لم يصف به نفسه في التنزيل أو السنة»^(٤).

وقال ابن فارس: «الواو والحاء والذال أصل واحد يدل على

(١) لسان العرب (٣/١٧٦).

(٢) القاموس المحيط (٥٠٧).

(٣) لعله يقصد الوصف المستغرق (الوصف المطلق) أو التسمي به، أما مطلق الوصف فلا بأس به؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّ أَحَدًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ...﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزٌ﴾ [الحاقة: ٤٧]، أو لعله قصد منع الإشارة لشخص بأنه أحد، فلا يقال: فلان أحد، لكن يقال: فلان واحد.

(٤) معجم تهذيب اللغة (٤/٣٨٤٤-٣٨٤٧).

الانفراد»^(١).

وقال الجوهري: «الوحدة: الانفراد»^(٢).

وقال ابن منظور: «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الواحد الأحد، ذو الوجدانية والتوحد» وكذلك تعريف الفيروزآبادي^(٣).

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده»^(٤).

قلت: وبين الإخلاص والتوحيد عموم وخصوص؛ فإن افترقا دل كل منهما على الآخر، وإن اجتمعا تعلق لفظ التوحيد بأصل الإيمان والديانة، وتعلق لفظ الإخلاص بإفراد العبادة على التفصيل، والله أعلم.

وقد قسم العلماء التوحيد لأقسام اصطلاحية تسهياً لإفهامها، فمنهم من قسم التوحيد لقسمين: الأول: توحيد المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد الطلب والقصد، وهو توحيد الألوهية والعبادة^(٥)، ومنهم من يقسمه لثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، وهو

(١) المعجم (١٠٤٥).

(٢) الصحاح (٢/٤٧٧)، وانظر: المفردات (١٥٦).

(٣) اللسان (٩/٢٣٦).

(٤) القاموس (١٨٥٣).

(٥) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١٥).

التوحيد الذي أقرّ به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم يدخلهم في الإسلام، وقاتلهم رسول الله ﷺ واستحلّ دماءهم وأموالهم ﴿وَمَنْ يُدْبِرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقَوْنَ﴾ [يونس: ٣١].

الثاني: توحيد الألوهية^(١): وهو أفراد الله تعالى بأفعال العباد كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرغبة، وهو التوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] أي أفراد الله عز وجل بالعبادة. وهو التوحيد الذي من أجله خلق الخلق، وأنزلت الكتب، وبعثت الرسل، وقامت سوق الجنة والنار، وجردت سيوف الملة نصرة له وقرعاً لمناكيه.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو أفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، والسكوت عما سكوت عنه الله ورسوله، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل^(٢).

قال شيخ الإسلام: «ودين الإسلام مبني على أصليين: على أن يُعبد الله

(١) ويسمى توحيد الإلهية والعبادة والعبودية. فالألوهية نسبة إلى توحيد الله وحقه، والعبودية نسبة إلى فعل العبد وإيمانه.

(٢) انظر: مجموعة التوحيد لابن تيمية (٧، ٨)، فتاوى العثيمين (٢ / ١١٢).

وحده ولا يُشرك به شيء، وعلى أن يُعبد الله بما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ، وهذان هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(١).

وقال: «لا يتتفع بشفاعته النبي ﷺ إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محباً له ومعظماً إياه لم تنقذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ﷺ، ولهذا فإن أبا طالب وغيره ممن يحبونه ولم يقرّوا بالتوحيد الذي جاء به لم يكن ليخرج من النار بشفاعته ولا بغيرها، ودليل ذلك قوله ﷺ جواباً عمّن سأله: أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال عليه الصلاة والسلام: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، وقد اختار ﷺ الشفاعته وجعلها خاصة بمن مات لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

وقد ذكر أيضاً رحمه الله تعالى: أن إخلاص الدين هو الذي لا يقبل الله تعالى سواه، وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه^(٣).

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لابن تيمية (١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى باختصار وتصريف (١٥٣، ١٥٤) عن موسوعة نضرة النعيم (٤/٣٠٨).

(٣) التحفة العراقية في أعمال القلوب (٥٨).

الكلام في حديث «إنما الأعمال بالنيات»

في الصحيحين عن يحيى بن سعيد الأنصاري^(١) عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية - وفي رواية بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وهو حديث عظيم جليل القدر قد حوى جملة فوائد لا غنى لمسلم عنها.

قال الحافظ ابن مهدي رحمه الله تعالى: «من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث». وقال: «لو صنفت كتاباً لبدأت في كل باب منه بهذا الحديث» فهو حديث عظيم عليه مدار الإسلام والإيمان مع بضعة أحاديث أخر^(٢).

(١) ورواه عن يحيى بن سعيد أئمة الإسلام، يقال: إنه رواه عنه نحو من مئتي عالم مثل مالك والثوري وابن عيينة وحماد، وهو حديث صحيح متفق على صحته تلقته الأمة بالقبول والتصديق مع أنه من غرائب الصحيح. مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٤٧).

(٢) وقد اختلف في عدّها على عشرة أقوال، أمثلها أنها ثلاثة: «إنما الأعمال بالنيات» رواه الشيخان، «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» أخرجه الترمذي وابن ماجه، «الحلال بيّن والحرام بيّن» رواه الشيخان، ومنهم من زاد عليها «وازهد في الدنيا يحبك الله» رواه أبو داود والدارقطني. وقد نظمها أبو الحسن المعروف فقال:

ومن جلالته أن رسول الله ﷺ قد خطب به فقال: «يا أيها الناس إنما الأعمال بالنية»^(١)، وخطب به عمر أيضًا على منبر رسول الله ﷺ، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه»^(٢). كذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وغيره: «إنه ثلث العلم»^(٣).

قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللهُ: «وسببه كما قال البيهقي وغيره أن كسب العبد بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنه يكون عبادة بانفرادها، بخلاف القسمين الآخرين، ولهذا كانت «نية المؤمن خير من عمله»^(٤)، ولأن القول والعمل يدخلها الفساد بالرياء ونحوه بخلاف النية.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: يدخل هذا الحديث في ثلاثين بابًا من الإرادات والنيات.

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعينك واعملن بنية
وانظر تفصيل الأقوال في: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام للحافظ ابن الملقن (١) /
١٥٣)، وفي جامع العلوم والحكم لابن رجب (٥).

(١) البخاري (١ / ١٠).

(٢) معرفة السنن للبيهقي (١ / ١٩١).

(٣) فتح الباري (١ / ١١).

(٤) الديلمي في مسند الفردوس، والطبراني في الكبير (٦ / ٢٢٨) بإسنادين ضعيفين.

وقال أبو عبيد: ليس شيء من أخبار النبي ﷺ حديثاً أجمع وأغنى وأكثر فائدة وأبلغ من هذا الحديث (١).

وقال ابن دحية: لم أجد فيما أرويه من الدينيات أنفع من قوله: «إنما الأعمال بالنيات» إذ مدار العلم عليه، وهو نور يسعى بين يديه (٢).

والضابط لحصول النية: أنه متى قصد بالعمل امتثال أمر الشرع، وتركه الانتهاء بنهي الشرع؛ كانت حاصلة مثاباً عليها وإلا فلا، وإن لم يقصد ذلك كان عملاً بهيمياً، ولهذا قال السلف: الأعمال البهيمية ما عملت بغير نية.

وقال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي في أربعينه: هذا الحديث أصل كبير في صحة الأعمال الدينية، وأنها موقوفة على خلوص النية، وهي بالإضافة إلى الأفعال والأقوال بمنزلة الأرواح للأشباح، والأعمال كالأجسام الموات والنية الصالحة لها كالحياة، فمتى لم يقصد العامل بعمله وجه الله دون ما سواه كان سعيه خائباً وأمله كاذباً، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]... والإخلاص يرجع إلى الكتاب والسنة، أما الكتاب فكل آية تضمنت مدح الإخلاص وذم الرياء نحو ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾

(١) فتح الباري (١ / ١١).

(٢) الإعلام لابن الملحق (١ / ١٥٨-١٦٠).

[البقرة: ٢٦٤].

وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١)، وقوله: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»^(٢)، وقوله: «إذا أنفق الرجل على أهله وهو يحتسبها فهي له صدقة»، وقوله في حديث سعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»^(٣).

ولما عزم مالك رَحِمَهُ اللهُ على تصنيف الموطأ كتب بعض من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت، فقبل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأُتي بذلك فنظر فيه ثم نبذه وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع من هذا إلا ما أُريد به وجه الله^(٤). قال الفضل بن محمد بن حرب: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار وما سمع بشيء منها بعد ذلك يُذكر^(٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والنية^(٦) محلها القلب باتفاق العلماء، فإن

(١) مسلم (٤/ ٢٥٦٤).

(٢) متفق عليه البخاري (٢٧٨٣). و مسلم (١٣٥٣)

(٣) متفق عليه البخاري (٥٦). و مسلم (٤٤٠٩).

(٤) التمهيد لابن عبد البر (١/ ٨٦) عن محقق الإعلام.

(٥) الإعلام لابن الملقن (١/ ١٦٢-١٦٥) باختصار. وقد ذكر رحمه الله اثنتين وثلاثين

فائدة من هذا الحديث الجليل.

(٦) النية لها إطلاقان: الأول: إرادة وجه الله وحده لا شريك له بالعمل، وهذا هو

نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم.

والنية تتبع العلم، فمن علم ما يريد فعله فلا بد أن ينويه ضرورة، ولو كُلف العباد أن يعملوا عملاً بغير نية كلفوا ما لا يطيقون، فإن كل أحد إذا أراد أن يعمل عملاً مشروعاً أو غير مشروع فعلمه سابق إلى قلبه وذلك هو النية، وإذا علم الإنسان أنه يريد الطهارة والصلاة والصوم فلا بد أن ينويه إذا علمه ضرورة، وإنما يتصور عدم النية إذا لم يعلم ما يريد، مثل من نسي - الجنابة واغتسل للنظافة أو للتبرد، أو من يريد أن يعلم غيره الوضوء ولم يرد أن يتوضأ لنفسه، ومن عرف هذا تبين له أن النية مع العلم في غاية اليسر - لا تحتاج إلى وسوسة وآصار وأغلال، ولهذا قال بعض العلماء: الوسوسة إنما تحصل للعبد من جهل بالشرع أو خبل بالعقل»^(١).

وقال: «وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» يبين العمل الباطن، وأن التقرب إلى الله يكون بالإخلاص في الدين لله، كما قال الفضيل في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أخلصه وأصوبه، قال: فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل،

الإخلاص. الثاني: تمييز العبادة عن غيرها.

قال شيخ الإسلام: «ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين: فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل، وعبادة من عبادة، أو يريدون بها تمييز معبود عن معبود ومعمول له عن معمول له» المجموع (١٨ / ٢٥٦).

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٨ / ٢٦٢، ٢٦٣) باختصار.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر استحباب، وألا يشرك العبد بعبادة ربه أحداً؛ وهو إخلاص الدين لله^(١)، وكذلك قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]، فإن إسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله، والإحسان هو إحسان العمل لله، وهو فعل ما أمر به فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الاستهانة بالأمر به، والاستهانة بنفس العمل، والاستهانة بما وعده الله من الثواب، فإن أخلص العبد دينه لله، وأحسن العمل له كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢).



(١) لذلك يشترط العلماء لقبول العمل إضافة للشرطين الإخلاص والمتابعة شرطاً ثالثاً وهو الإيمان المصحح لبقية أفراد العبادة. ومن الشروط كذلك الموافقة على الإيمان.

نسأل الله حسن الخاتمة بمنه وكرمه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨ / ٢٥٠، ٢٥١).

لا غنى للعبد عن التوحيد والإخلاص

قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «وأما النية التي هي إخلاص الدين لله فقد تكلم الناس في حدّها وحدّ الإخلاص، كقول بعضهم: المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يجب أن يطّلع الناس على مثاقيل الذر من عمله»^(١).

وقال الفضل بن زياد: سألت أبا عبد الله - يعني الإمام أحمد - عن النية في العمل، قلت: كيف النية؟ قال: «يعالج نفسه إذا أراد عملاً لا يريد به الناس». وحدّث يزيد بن هارون بحديث عمر: «الأعمال بالنيات» وأحمد جالس فقال أحمد ليزيد: «يا أبا خالد هذا الخناق».

والنية في القرآن يعبر عنها كثيراً بالإرادات كقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨].

وفي السنة وكلام السلف تأكيد شديد على شأن الإخلاص والنية كقوله

(١) السابق (١٨ / ٢٦٠).

عَنْ اللَّهِ: «من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقلاً فله ما نوى»^(١)، وما روي عنه: «يحشر- الناس على نياتهم»^(٢)، وقوله في حديث الخسف بالجيش: «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، ويبعثهم الله على نياتهم»^(٣)، وقوله: «من كانت همه الدنيا فرق الله شمله - وفي لفظ: أمره - وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).

وقال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

وقال زيد الشامي رَحِمَهُ اللهُ: إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب^(٥)، انو في كل شيء تريد الخير حتى خروجك إلى الكناسة^(٦).

(١) رواه أحمد والنسائي من حديث عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٩٢٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣١٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٢٣٠).

(٣) رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهذا لفظه من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٥) لذلك قيل: عادات العلماء عبادات، وعبادات العامة عادات.

(٦) أي: بيت الخلاء.

الإخلاص والتوحيد

وقال داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيراً وإن لم تنصب. وقال: والبر همّة التقى ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أهله.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي.

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللهُ: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

وقيل لنافع بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: ألا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت حتى أنوي، قال: ففكر هنيهة ثم قال: امض.

وقال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: ربّ عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية^(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وفي حديث «إنما الأعمال بالنيات» ذكر ﷺ أن الأعمال بحسب النيات، وحظ العامل من عمله نيته من خير أو شر، وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء، وذكر بعد ذلك مثلاً من الأمثال والأعمال التي صورتها واحدة ويختلف صلاحها وفسادها

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٩، ١٠).

باختلاف النيات، وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال»^(١).

وقال السندي رَحْمَةُ اللَّهِ: «قوله: «وإنما لكل امرئ ما نوى» أي ليس للفاعل من عمله إلا نيته أو منويه، أي الذي يرجع إليه العمل نفعًا أو ضرًا هي النية، فإن العمل بحسبها يحسب خيرًا أو شرًا، ويجزئ المرء على العمل بحسبها ثوابًا أو عقابًا، ويكون العمل تارة حسنًا وتارة قبيحًا بسببها، ويتعدد الجزاء بتعددتها»^(٢).

وقال مكحول رَحْمَةُ اللَّهِ في شأن الإخلاص والتجريد: ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه.

وقال أبو سليمان الداراني رَحْمَةُ اللَّهِ: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس والرياء.

وقال يوسف بن الحسين رَحْمَةُ اللَّهِ: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر.

وقال الجنيد رَحْمَةُ اللَّهِ: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان يفسده، ولا هوى فيميله^(٣).

وقال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ

(١) السابق (ص ١١).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (١ / ٦٣).

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩٣-٩٦).

الإخلاص والتوحيد

عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿﴾ [الكهف: ١١٠]: «وهذان ركننا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ» (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه» (٢).

وفي قصة إسلام عكرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما ركب البحر هاربًا من رسول الله ﷺ فهاج البحر وأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آهتكم لا تعني عنكم شيئاً ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلاجدنه عفواً كريماً. فجاء فأسلم (٣).

وتأمل أخي - أحسن الله إليك - في فضل الإخلاص حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربّه فيه، ويصلُّ به رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيتّه، فأجرهما سواء. وعبد

(١) تفسير ابن كثير (١٦ / ١١٤).

(٢) الفوائد (٦٧)، وانظر: موسوعة نضرة النعيم (٢ / ١٣٩).

(٣) النسائي (٧ / ١٠٥)، وصححه الألباني (٣٧٩١).

رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيتُهُ، فوزرهما سواء»^(١)، ويشهد لذلك حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تَصِبْهَا»^(٢).

وتأمل حديث البطاقة^(٣) وحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة^(٤) وتفكر في مغزى التكرار والتأكيد على الإخلاص في قوله ﷺ: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصَدِّقُ كَلِمَاتِهِ، بَأَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(٥)، ومثله حديث الخروج للصلاة: «ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ»^(٦)، وفي حديث عتبان المشهور لم يذكر ﷺ وسيلة لالتقاء النار سوى الإخلاص في كلمة التوحيد «لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح (٢٣٢٥).

(٢) مسلم (١٩٠٨)، وفي حديث معاذ مرفوعاً: «وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ» أبو داود (٥٤١) وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي وحسنه (٢٣٦٩).

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) متفق عليه.

لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله إلا حرّم عليه النار»^(١).

ولما خرج ﷺ في غزاة قال لأصحابه: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»، وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»^(٢)، فلما صدقوا النية وحبسهم العذر أُجروا كالعاملين، فالحمد لله على فضله وإحسانه.

ومن رحمته تعالى أنه لم يجعل الهم بالسيئات كاهم بالحسنات، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»^(٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي الأربعين^(٤) معلقاً على هذا الحديث العظيم: «فانظر يا أخي وفقنا الله وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأمل هذه الألفاظ،

(١) البخاري (٦٤٢٣) وبقية شروط لا إله إلا الله التي استقرأها العلماء تنتظم في هذا الشرط، فإذا حضر الإخلاص حضرت وإن غاب لم تنفع.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) الأربعين النووية، الحديث (٣٧). ولعل القبول الذي وضعه الله لمؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ عائد إلى حسن نيته وصدق قوله.

وقوله: «عنده» إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء بها. وقال في السيئة التي همّ بها ثم تركها: «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكّدها بـ«كاملة»، «وهمّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» فأكد تقليبها بواحدة، ولم يؤكدها بكاملة، فله الحمد والمنة لا نحصي- ثناء عليه، وبالله التوفيق.

وقد ذكر الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي الْإِحْيَاءِ^(١) كلامًا نفيسًا نلخص مهماته، قال: «قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تمّ عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم. وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويردها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا. وقال الحسن: إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل

(١) وهو كتاب عظيم حافل لو أنه اجتنب الأحاديث الموضوعية والأخبار المكذوبة وشطحات الصوفية والمتفلسفة وغرائب الاستنتاجات التي قد يؤدي بعضها إلى اليأس. وللعمامة يغني عنه (مختصر منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي، الذي اختصر به منهاج القاصدين لابن الجوزي الذي اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي.

النار في النار بالنيات.

واعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل. فالعلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. ولا بد أن ينفرد الباعث دون غيره وأن يكون متجردًا خالصًا عن مشاركة غيره وممازجته. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦]. وقال ﷺ: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله...»^(١).

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، لذلك كان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من

(١) رواه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني،

تخريج كتاب السنة (١٠٨٥).

خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس . وقال أيوب السخيتاني: تخلص العمل على العمل أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول: من صفا صُفِّي له، ومن خلط خلط عليه . وقيل: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص .

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشعر به غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصقَّى المخلص: إخلاصاً . قال تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ قَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِيبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] . فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من اللبن والفرت ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراف، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات . فالإخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الإلهية^(١)، والشرك منه خفي وجلي، وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصد والنيات^(٢) .



(١) كذلك الربوبية والأسماء والصفات .

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٢ / ١٦٦٨ - ١٦٨٤) باختصار .

اقتضاء القول للعمل

التوحيد والإخلاص لا بد لهما من مجاهدة دائمة وحراسة يقظة لشدة نزاهتهما ولتاثرهما المباشر بأدنى خدش أو ظلمة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرأة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه: منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال.

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيراً عظيماً، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيعترّ به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوجه العظيم الكثير توحيده، فيظهر من تأثيره ما لم يظهر في التوحيد الكثير.

وأيضاً فإن المحل الصافي جداً يظهر لصاحبه مما يُدّسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه، فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به.

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها، بخلاف القوة الضعيفة.

وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكبيرة والغامرة للسيئات يُسامح بما لا يُسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن، كما قيل: وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يُحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها^(١).

ومن عظمة التوحيد أن كلمته ترجح بالسموات والأرضين، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهنَّ لا إله إلا الله»^(٢)، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ «أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: أمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع

(١) الفوائد، ابن القيم (٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) رواه ابن حبان (٦٢١٨) والحاكم وصححه، وجوَّده ابن باز في الفوائد العلمية (٣٦٠/٢).

لو وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن
السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمه قصمتهن لا إله إلا
الله»^(١).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: «وذلك لما
اشتملت عليه لا إله إلا الله من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة
ورأس الدين، فمن قال بإخلاص ويقين عمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على
ذلك؛ فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٢) «ومعنى لا إله إلا الله
أي لا معبود بحق إلا إله واحد هو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:
٢٥] مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فصح أن معنى الإله هو المعبود. لهذا لما قال النبي ﷺ
لكفار قريش: «قولوا لا إله إلا الله»^(٣) قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَحَدًّا إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ مُعْجَبٌ﴾ [ص: ٥] فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله
حق، وأن إلهية ما سواه من أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة
سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره»^(٤).

(١) رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٩٤).

(٣) رواه أحمد (١٥٤٤٨) وصححه الألباني في الإرواء (٨٣٤).

(٤) السابق (٧٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كحديث عتبان أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(١)، وحديث معاذ أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار»، قال: يا رسول الله، ألا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلموا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثراً^(٢).

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم على النار، ومنها حديث عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٣)، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»^(٤)، وأحسن ما قيل في معناه^(٥) ما قاله شيخ الإسلام

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه. ومعنى تأثراً: أي خوفاً من لحوق الإثم به لكتمه العلم.

(٣) متفق عليه. ومعنى «كلمته»: أي خلقه بكلمته: كن. ومعنى «وروح منه» أي أنه روح من الأرواح المخلوقة، لكن نسبه إليه لشرفه كبيت الله وعين الله وناقة الله.

(٤) رواه مسلم.

(٥) انظر: تيسير العزيز الحميد (٧٢-٩٠)، الفتاوى العراقية، ابن تيمية (٢/ ٥٨٤) (٢/ ١٠٦٤-١٠٨٣).

وغيره: «إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه، غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن محمداً رسول الله.

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يُحشى عليه أن يفتن عند الموت فيُحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالباً من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»^(١)، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث،

(١) رواه أحمد من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد رواه الشيخان.

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذه التوبة وهذا الإخلاص وهذه المحبة وهذا اليقين أمور لا تترك له ذنبًا إلا يُمحي كما يُمحي الليل بالنهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك؛ فهذه الحسنات لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصرًا على ذلك؛ فإنه يستوجب النار وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصًا لكن أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك.

بخلاف المخلص المستيقن؛ فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرًا على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة تضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين

الإخلاص والتوحيد

مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قول لا إله إلا الله فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، ويقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر- بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل، واستحل الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا بلسانه ما ليس في قلبه، وبفعل ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال شرًا وعمل شرًا لم يُقبل منه.

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه.

والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على سيئاتهم، ثم ضعف لذلك

صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام.

وبالجملة فلا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضى- لذلك، ولكن المقتضى- لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ولهذا لما قيل للحسن: إن ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة. قال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك وإلا لم يفتح. ويدل على ذلك أن الله تعالى رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة وكذلك النبي ﷺ كما في الصحيحين عن أبي أيوب أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(١)، وعن بشر- بن الخصاصية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ لأبأيعه، فاشتراط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة. فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: «فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذا؟» قلت: يا رسول

(١) متفق عليه.

الله: أبايعك عليهن كلهن^(١). والأحاديث في هذا الباب كثيرة».



(١) رواه أحمد، ووثق رجاله الأرنؤوط في تخريج المسند (٢١٩٥٢).

الإخلاص التام

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «ما يكاد يجب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن المشغول بالحق يفرّ من الخلق، ومتى فرغ القلب من معرفة الحق امتلاً بالخلق فصار يعمل لهم ومن أجلهم، ويهتم بالرياء ولا يعلم.

ومن رأى الخلق عبدهم وهو لا يعلم، أما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد عن الخلق، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بُعدهم عنه.

وقد رأينا من يرئى ولا يدري فيمتنع من المشيء في السوق ومن زيارة الإخوان ومن أن يشتري شيئاً بنفسه. وتوهمه نفسه أنه يكره مخالطة السوق، وهذا يرئى جاهاً بين العامة، إذ لو خالطهم لامتحي جاهه، وبطل تقبيل يده. وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار. وأبلغ من هذا أن نبينا ﷺ كان يشتري الشيء ويحمله، وخرج علي بن أبي طالب يوماً وهو أمير المؤمنين فاشترى ثوباً. وقد كان طلحة بن مطرف قارئ أهل الكوفة فلما كثر الناس عليه مشى إلى الأعمش فقرأ عليه فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحة.

وهذا والله الكبريت الأحمر، والإكسير، والمعاملة مع الله هكذا تكون.

فأما ضد هذه الحال فحالة عابد للخلق مليء بمظهره، وقد عم هذا جمهور الخلق، حاشا السلف.

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب»^(١)
 هذا، واعلم -رحمني الله وإياك- أن عبادة السر- من أعظم وسائل الثبات،
 وقد كان السلف يستحبون للمرء أن تكون له خبيئة من عمل صالح لا يطلع
 عليها إلا الله، وبعض الناس يظن أن الخبيئة لا بد أن تكون عن قوام دنيا
 كإطعام الطعام وكفالة الأراامل والأيتام ونحوه، وهذا قصور، فلا شك أن
 هذه من أبواب أعمال السر- بين العبد وربّه، ولكن كل عمل صالح كتمته عن
 الخلق فهو خبيئة لك، ولو بالذكر والصلاة والمناجاة ونحو ذلك. وهذه
 الأعمال الخالصة التي صنعت لوجه الله تعالى هي أعظم الذخائر يوم تبلى
 السرائر.

قال ابن رجب: «عبادة الخلوات من وسائل الثبات على الإيمان حتى
 الممات، ومعاصي الخلوات من أعظم أسباب الانتكاسات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب
 الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في
 ذلك النور قوة وضعفًا لا يحصيه إلا الله تعالى».

فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في
 قلبه كالكوكب الدرّي، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر
 كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٢٨٨، ٢٨٩).

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً ومعرفةً وحالاً.

وكلما عظم نورُ هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه.

وهذا حال الصادق في توحيدهِ الذي لم يشرك بالله شيئاً، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقتها، فسَاء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرّة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرِق منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزائنه وولّى الباب ظهره»^(١).

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «إن كل آية في القرآن هي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيدهِ وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهذا جزاء توحيدهِ،

(١) المدارج (١/٥٧٧-٥٧٩).

الإخلاص والتوحيد

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ توحيد ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

ولذلك شهد الله لنفسه بالتوحيد وشهد له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله، قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]، فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود به. وقد تضمنت هذه الآية الكريمة مراتب الشهادة الأربعة: العلم والتكلم به وإعلام غيره بما شهد به والالتزام بمضمونها والأمر به^(١).

وقال شيخ الإسلام: «توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن كثير جداً، بل هو قلب الإيمان، وأول الإسلام وآخره، كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم (٤/ ٤٣١-٤٤٤).

الله»^(١)، وقال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله وجبت له الجنة»^(٢)^(٣)، وهو قلب الدين والإيمان وسائر أعمال الجوارح له، كما في قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(٤).

هذا ومن بركات التوحيد أن من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب^(٥)، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في عرض الأمم على النبي ﷺ «فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب»، لم أخبر بصفتهم فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»^(٦)، قال عبد الرحمن بن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد: «تحقيق التوحيد قدر زائد عن ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين: واجب ومندوب، فالواجب تحليصه من شوائب الشرك والمعاصي، فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدر فيه وتنقص ثوابه. والمندوب هو تحقيق المقربين الذين تركوا ما به بأس

(١) متفق عليه.

(٢) أحمد (٢٢٣٨٤)، وأبو داود (٣١١٦)، وفيه صالح بن أبي عريب روى عنه جمع ووثقه ابن حبان، وحسنه النووي في المجموع (١١٠/٥).

(٣) فأول دخول الإسلام بها، والرحيل من هذه الدنيا بها.

(٤) متفق عليه.

(٥) مجموع الفتاوى (٧٠ / ١).

(٦) متفق عليه.

حذرًا مما به بأس، وحقيقته: انجذاب الروح إلى الله فلا يكون في قلبه شيء لغيره.

وقال الله تعالى مثنيًا على خليله إبراهيم عليه السلام الذي كمل مراتب الإخلاص والتوحيد: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] قال الإمام المجدد في الكلام على هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿ حَنِيفًا ﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين، ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ خلافًا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «القرآن كله مملوء من تحقيق التوحيد والدعوة إليه، وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به. ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله، وأن تثبت ألوهية الله في قلبك وتنفي ألوهية ما سواه، وهذا كثير في القرآن، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليماً»^(٢).

قال ابن الجوزي في شأن الإخلاص: «يا معاشر العلماء! قد كتبت

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٠، ١٠١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٣٤٧/٥ - ٣٤٩) باختصار.

و درستم، ثم إن طلبكم العلمُ فليستم في بيت العمل، ثم لو ناقشكم الإخلاص لأفليستم.

شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زرع، ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ عَى﴾ [النحل: ٢٧]، وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة ﴿وَقَفُوهُمْ﴾ [الصفات: ٢٤].

ريح المخلصين عطرية القبول، والمرائي سموميّ النسيم، نفاق المنافقين صير المسجد ﴿لَا نُقَمُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ «رب أشعث أغبر»^(١).

«أيها المرائي! قلبٌ من ترائيه بيد من تعصيه يا أسفى! ذهب أهل التحقيق وبقيت بنات الطريق، خلت البقاع من الأحباب، وتبدلت العمارة بالخراب، يا ديار الأحباب عندك خبر! المخلص يُهرج^(٢) على الخلق بستر الحال، وببهرجته صحَّ النقد.

كان في ثوب أيوب السختياني بعض الطول لستر الحال^(٣) وكان إذا وعظ فرَّق، فرَّق قلبه من الرياء فيمسح وجهه ويقول: ما أشد الزكام! وكان يجيي الليل كله، فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

(١) رواه مسلم.

(٢) البهرج: الذهب والجواهر المزيفة.

(٣) لعل له تأويلاً بإسباله، وإن كان شرف الغاية لا يبرر حرمة الوسيلة، والمعنى الذي قصده نفيس جداً.

وكان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل رجلٌ غطّاه.
وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخلٌ وهو يصلي اضطجع على فراشه.
مرّض إبراهيم بن أدهم فجعل عند رأسه ما يأكل الأصحاء لئلا يتشبه
بالساكين، هذه والله بهرجة أصحُّ من النقد.
قُرئ على أحمد بن حنبل أن طاووسًا كان يكره الأئين، فما أن مات.
تفِيضُ نفوسٌ بأوصابها وتكتم عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكى أذاها^(١) إلى غير أحبابها^(٢)



(١) في الأصل (هواها) ولكنه لا يليق بهذا المقام إجلالاً لله تعالى.

(٢) المدهش، ابن الجوزي (٢/ ٥٨٤-٥٨٧) باختصار.

وسائل تحقيق التوحيد والإخلاص

المعوّل كله على توفيق الله تعالى لعبده ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾
[الكهف: ١٧]، ومن الوسائل المعينة على تحقيق الإخلاص والتوحيد:

أولاً : قطع الطمع في الخلق :

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوت. فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهّل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يُؤتي العبدَ منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضمر- ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زينٌ وذمي شينٌ. فقال: «ذلك الله عز وجل»^(١). فازهد في

(١) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٣٢٦٧).

مدح من لا يزينك مدحُه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه.

ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربه من قلوبهم، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له. فإن رضي عمله وراه خالصاً لفت القلوب إليه، وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه.

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك نيته؛ لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له. ومن ضرورة الإخلاص: ألا يقصد التفات القلوب إليه، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك.

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة وإن لم يطلعوا عليها، فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح وإن لم يشاهد منه ذلك. وأما من يقصد رؤية الخلق بعمل فقد مضى العمل ضائعاً؛ لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلق؛ لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل وذهب العمر. فليتق الله

(١) الفوائد، ابن القيم (٢١٩، ٢٢٠).

العبد وليقصد من ينفعه قصده، ولا يتشاغل بمدح الناس»^(١).

ثانياً: التخلص من رؤية الع- حمل؛ حتى يبرأ من الإعجاب بنفسه وعمله،

فالعجب محبط للعمل ومفسد للقلب وباب للمقت.

قال ابن القيم: «الذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته سنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهذا ينفعه شهود الجبر^(٢)، وأنه آلة محضة وأن فعله كحركات الأشجار وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، وأنه لو خُلِّيَ ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء البتة، فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه، فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله، وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) ليس مراد المصنف إقرار الجبرية على عقيدتهم الضالة، بل قصد التنبيه على أن العبد إزاء فعل الطاعات عليه أن يستحضر- مشيئة الله تعالى، وأن طاعته لم تكن لولا توفيق الله، وهذا نافع في مشهد الطاعات لأنه طارد للعجب. أما المعاصي فلا، بل عليه أن يتذكر ذنبه وخطيئته، وحتى في الطاعة عليه أن يتذكر نقصه وتقديره.

الإخلاص والتوحيد

تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمُنُّ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنتته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله^(١).

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: «والعارف^(٢) من صغرت حسناته في عينيه وعظمت

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٦-٣١٨).

(٢) قال الراغب: «المعرفة والعرفان هي في اللغة إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويضادها الإنكار. يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد، لما كانت معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم المتوصل إليه بتفكير». (المفردات للراغب الأصفهاني: ٤٣١).

قلت: ولا يلزم من قولنا: العلم بالله إدراك ذاته، بل إدراك ما عَلِمْنَا مما عَلَّمَنَا سبحانه بالوحي. ولفظ العارف لا أعلم أن السلف اصطلاحوا عليه بل الجادة على اسم العابد، والذين استخدموه كاصطلاح كاشف أرادوا به العابد العالم بالله وإن لم يكن عالماً بشريعته، أي أنه مخلص صادق متوكل قد اجتمع قلبه على صدق التوجه والمحبة لربه. وقد بَوَّب البخاري رحمه الله على قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» بقوله: المعرفة فعل القلب لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقد ورد هذا الحديث من رواية الأصيلي بلفظ: «أنا أعرفكم بالله» (الفتح ١/ ٨٩).

وقال ابن القيم رحمه الله: «لا يوصف بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة، فالعارف

ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس.

هو من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملته، ثم أخلص له قصده ونيته، ثم جرد للدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ولم يُشبهها بآراء الرجال وأذواقهم ومواقفهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة، إذ سمي به غيره على الدعوى والاستيعاب (المدارج ٣/٣٣٧-٣٣٨) باختصار عن شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله (٨٨) عبد العزيز مصطفى.

قلت: إن صح الخبر فهو أصل في التسمية وقد استعمله ابن تيمية كثيراً (وقد صححه الزرقاني كما في مختصر المقاصد الحسنة (١٦٥) كذلك محمد جار الله الصعدي في النوافح العطرة (٥٧) بلفظ: «أنا أعلمكم بالله وأعرفكم»). وإن لم يصح ولم يشهد له غيره فالأولى ترك ذلك والاعتياض عنه بالمسمى الشرعي الذي لا شبهة فيه وهو العابد أو العالم بالله. وقد يكون سبب تعلق المتصوفة بهذا المصطلح أنه دخيل من قبل قدماء المتصوفة الغنوصية الآسيوية أو الفلسفة الإغريقية ثم تلبست لبوس الصلاح، فهي تشير - عند كثير منهم - إلى معرفة خفية أو كشف لدني وتحصل عندهم عن طريق الرياضة والجوع والخلوة والتأمل لا عن طريق تعلم القرآن والسنة، وقدماء أولئك يقدسون المعرفة من حيث هي معرفة مطلقة لا من حيث الآثار أو المآلات. وبالجملة فالعدول عن هذا المسمى (العارف) أروح وأحسن ما لم يثبت في ذلك حديث، نعم إنه مجرد مصطلح ولا مشاخة وخطبها يسير، ولكن حراسة قوالب الشعيرة بمفردات اللغة ومسميات الشرع أولى وأسلم وأنجح وأفلح. وبالله التوفيق.

ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت حسناته عنده وصغرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذي يليق بعزته ويصلح له من العبودية أمر آخر، وكلما استكثر منها استقلَّها واستصغرها، لأنه كلما استكثر منها فُتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر جميع أعماله ولو كانت أعمال الثقلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دلٌّ على أنه محجوب عن الله عالم به وبما ينبغي له.

وبحسب هذه المعرفة، ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه لمشاهدته الحق ومستحقه، وتقصيره في القيام به وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه^(١).

ثالثاً: التخلص من طلب العوض على العمل: فيعلم أنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيدته عوضاً ولا أجره، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسان إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة؛ إذ الأجر إنما يستحقها الحر أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا.

رابعاً: التخلص من رضاه بعمله وسكونه إليه: وذلك بأمرين:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان، فقلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قلَّ،

(١) إحسان السلوك (١٨٩، ١٩٠).

وللنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»^(١)، فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظه، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟! وهذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية. وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه ألا ينصرف إلا عن يمينه»^(٢) فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد، فما الظن بما فوقه؟! وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيهما حقاً وأن يرضى بها لربه، فالعالم بربه لا يرضى بشيء من عمله له، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله^(٣) يحول بينه وبين الرضى بعمله، والرضى عن نفسه.

قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور، وكان بعض السلف يصلي الصلاة الطويلة ثم يقبض على لحيته ويقول لنفسه:

(١) البخاري (٧٥١).

(٢) متفق عليه.

(٣) أي مع مشاهدته لتقصيره ونقصه وذنبه.

يا مأوى كل سوء، وهل رضيتك لله طرفة عين؟!!

فالعابد الصالح ينجل من عمله ويشتد حياؤه من ربه، إذ لم ير ذلك العمل صالحًا له، مع بذل مجهوده فيه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاً وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال ﷺ: «هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه»^(١)، وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق الذي يراه الناس؛ حياء من الله عز وجل. فالمؤمن جمع إحسانًا في مخافة وسوء ظن بنفسه، والمغرور حسن الظن بنفسه مع إساءته»^(٢).

خامسًا: تذكر ما عند الله من العيبة والجزاء: فلا ينال ما عند الله من الرضى والنعيم إلا بتوحيده والإخلاص له. والحياة الحقيقية والسعادة الأبدية والكفاية التامة مع الإخلاص لرب البرية سبحانه.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شأنه الله.

قال ابن القيم معلقًا على كلام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا شقيق كلام النبوة، وهو جدير أن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن الإنفاق منهما نفع غيره وانتفع غاية الانتفاع.

(١) أحمد (٦/١٥٩)، الترمذي (٣١٧٤) وصححه الألباني.

(٢) مدارج السالكين (٢/٣١٦-٣٢١) بتصرف يسير.

فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر- وفصله. فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه عمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإن الله سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً وكان قيامه بالله والله لم يقم له شيء، ولو كادته السموات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة أو في اثنين منها أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر، وإن نُصر- نصرًا عارضًا فلا عاقبة له، وهو مذموم مخذول وإن قام في حق لكن لم يقم فيه الله وإنما قام لطلب المحمودة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تُضمن له النصر، فإن الله إنما ضمن النصر لمن جاهد في سبيله وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه وهواه فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر- إلا الحق، وإن كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبدًا، فإن كان صاحبه محققاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة.

وإذا قام العبد لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً

عليه مفوضاً إليه بريئاً من الحول والقوة إلا به؛ فله من الخذلان وضعف النصره بحسب ما قام به من ذلك. ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه منصور ولو توالى عليه زمر الأعداء.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «من أسخط الناس برضى الله عز وجل كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وَكَلَهُ إِلَى النَّاسِ»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وإذا أخلص العبد اجتهابه ربه فأحيا قلبه، وجذبه إليه، بخلاف القلب الذي لم يخلص، فإن فيه طلباً وإرادة، تارة إلى الرئاسة فترضيه الكلمة ولو كانت باطلاً، وتغيظه ولو كانت حقاً، وتارة إلى الدرهم والدينار وأمثال ذلك، فيتخذ إلهه هواه.

ومن لم يكن مخلصاً لله بحيث يكون أحب إليه مما سواه وإلا استعبده الكائنات واستولت على قلبه الشياطين، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إن لم يكن حنيفاً وإلا كان مشركاً ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، وإذا ذاق طعم الإخلاص انقهر له هواه بلا علاج^(٢)، وسيأتي في فصل الفرح بالله مزيد تفصيل إن شاء الله تعالى.

سادساً: العناية والرعاية لأعمال القلب تفقهاً وسلوكاً^(٣): فالعمل الصالح فرع

(١) إحسان السلوك (١٨١-١٨٣).

(٢) السابق (١٨٣، ١٨٤).

(٣) من أجل ذلك رُقِمَ هذا الكتاب، سائلاً ربي السداد والتوفيق والهدى.

عن العلم به، ومن أجل الأعمال الصالحة أعمال القلب، ومن أجلها الإخلاص، بل هو زبدتها وإكسيراها وغايتها، فلعمر الله لهو حقيق بأن تفنى فيه الأعمار وتبذل لنيله الدنيا وما فيها.

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه وليس ينال الفوز إلا المشمر
وأخلص لدين الله صدرًا ونيةً فإن الذي تخفيه يومًا سيظهر

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اجعل عملك تابعًا للعلم، موافقًا له، مؤتمًا به، تسير بسيره، وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته، نازلًا منازلها، مرتويًا من موارده، ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدًا به فعلاً وتركًا وطلبًا وهربًا، ناظرًا إلى ترتيب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا، ومع ذلك فتسير أنت بقلبك مشاهدًا للحكم القضائي الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات والحركات والسكنات، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته، فتكون قائمًا بالأمر والنهي فعلاً وتركًا، وبالقضاء والقدر إيمانًا وشهودًا وحقيقة، فتنظر إلى الحقيقة وتقوم بالشرية».

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨، ٢٩]﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَيْبِهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿[الإنسان: ٢٩، ٣٠]﴾.

فترك العمل يسير يسير العلم مشهد: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وسير

صاحبه مشاهدًا للحكم مشهد: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] (١).

وقال: «الإخلاص» عدم انقسام المطلوب، و«الصدق» عدم انقسام الطلب، فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة. فهذه الأركان الثلاثة (الإخلاص والصدق والمتابعة) هي أركان السير وأصول الطريق التي من لم يَبْنِ عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المُقْعَد والمقيّد، وإما سير صاحب الدابة الجموح، كلما مشت خطوة إلى قُدّام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيّد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يُجَارَى في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم» (٢).

وقال: «فإن الجهالة متى خالطت العبودية أوردتها العبد غير موردها، ووضعها في غير موضعها وفعل أفعالاً يعتقد أنها صلاح وهي إفساد لعبوديته. فالعبادة (٣) ما لم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها غير العلم بها نفسها كانت في

(١) المدارج (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) السابق (٢/ ٣٢٤) بتصرف يسير.

(٣) في الأصل (الخدمة) ويراد بها العبادة. والظاهر أنها دخيلة على المعنى الشرعي من بعض نساك الأعاجم كأمثال (المعرفة) ويقصد بها العلم، و(العارف) ويقصد به

مظنة أن تبعد صاحبها وإن كان مراده بها التقرب، ولا يلزم حبوط ثوابها وأجرها. فهي إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعده عن المنزلة والقربة، فلا بد من علم خاص بالله وأمره، ومحبة تامة له، ومعرفة بالنفس وما فيها، كما أنه يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس، وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم - مثلاً - وتمرن عليه فألفته النفس وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء، فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية وإنما هي تقاضي العادة^(١).

(العابد المحقق) ونحو تلك الكلمات والمسميات. وإن كان لفظ المعرفة ليس كغيره لوروده في القرآن الكريم ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٨٣]، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وعليه فالأمر فيها واسع إن شاء الله، وإن كان مرتبتها أقل من مرتبة العلم فالله تعالى وصف نفسه بالعلم وليس المعرفة. والأولى استخدام اللفظ الشرعي (العبادة) لأنها تقتضي المحبة مع العمل، وهذا ما لا يتأتى في لفظ (الخدمة)، كما أن المحافظة على لغة الصحابة النقية المنضبطة محتتم، فحراسة الشريعة في اللغة والاصطلاحات العربية الأولى مسلك مهم لسد الباب أمام سيل الكلمات والعبارات (الهجينة المعربة) التي جعلها بعض الناس بديلاً عن جزالة العربية العرباء التي هي وعاء الوحي ولسان القرآن. قال شيخ الإسلام: «من أعظم أسباب الغلط في فهم الكتاب والسنة أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث، فيريد أن يفسر. كلام الله بمصطلحه» مجموع الفتاوى (١٢/ ١٠٦).

(١) كذلك الصلاة ونحوها من العبادات إذا ألفتها النفس.

الإخلاص والتوحيد

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر. منه وأتم مصلحة لم تؤثرها إثارها لما اعتادته وألفته، كما حكى عن بعض الصالحين قال: حجبت كذا وكذا حجة على التجريد^(١)، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي. في الحاجات كان بحظ نفسي. وإرادتها؛ إذ لو كانت نفسي. فانية^(٢) لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

(١) التجريد هو الإخلاص.

(٢) وهذا من اصطلاحات المتصوفة المحدثه التي لم ترد عن السلف الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والفناء يراد به ثلاثة أمور: الأول: أن يفنى عما لم يأمر الله به بفعل ما أمر به، فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وهذا هو الفناء الشرعي الذي جاءت به الرسل. الثاني: وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره، بحيث يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله، ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبيناً، وكذلك من جعله من لوازم الطريق فهو مخطئ، بل هو من عوارض الطريق التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

الثالث: هو الفناء عن وجود سوى، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد». مجموع الفتاوى (٣/ ١١٨، ١١٩) باختصار.

ولابد من تقييد الحال بالعلم كما قال الجنيد بن محمد رَحِمَهُ اللهُ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في طريقنا هذا؛ لأن طريقنا وعمَلنا مقيد بالكتاب والسنة. وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ^(١).

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: «قد انكشفت لأرباب القلوب ببصيرة الإيَّان وأنوار القرآن أنه لا وجود للسعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصيل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

والنية هي الإرادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال أو في المآل. فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو

(١) المدارج (٢/ ٣٢٧-٣٢٩) باختصار.

الباعث، والغرض الباعث هو المقصود المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد، بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهاض عاضداً له ومعاوناً. فهذه أربعة أقسام، فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً:

أما الأول: فهو أن ينفرد الباعث ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع؛ فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع، فإنه عرف السبع وعرفه ضاراً فانبعث إلى الهرب ورغب فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نية الفرار من السبع لا نية في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة، ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

الثاني: أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافياً للحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام، وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حميماً، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل. وكان الباعث

الثاني رفيق الأول، فلنسمّ هذا «مرافقة البواعث».

الثالث: ألا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به أحدهما. ومثاله في غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير، وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب في غير وجه بر لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسمّ هذا الجنس «مشاركة».

الرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل^(١) ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس: أن يعاون الضعيف القوي على حمل ما لو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهّل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا: أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية، ولنسمّ هذا الجنس

(١) وهذا أخفاها وهو بحر لا ساحل له، وكم للشيطان فيه من نصيب، والله المستعان.

«المعاونة».

وبالجملة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقًا أو شريكًا أو معينًا. والعمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه، لذلك قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(١).

واعلم أن نية المؤمن خير من عمله^(٢)، ومعنى ذلك أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، والمقصود: أن نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما.

أما سبب كونها خيرًا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود.

فمن قال: الخبز خير من الفاكهة فإنما يعني أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدًا وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها

(١) متفق عليه.

(٢) وفيه حديث مرفوع «نية المؤمن خير من عمله» أخرجه الطبراني بسندين ضعيفين.

بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط، ولن يتنعم بقاء الله إلا من مات محباً لله عالمًا بالله، ولن يجبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع العلم بالضرورة، وعلى قدر التفرغ من شواغل الدنيا يتفرغ القلب للذكر والفكر. وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما، وإذا حصل أصل الميل فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها.

فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل، واشتغل بالعلم أو تربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر - عليه النزوع، وإن خالف مقتضى - ميله ضعف ميله وانكسر - وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسنٍ مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمر عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداءً وخالف مقتضى - ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زجراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر - بسبب وينقمع وينمحي.

وهكذا في جميع الصفات؛ الخيرات تراد بها الآخرة، والشرور تراد بها الدنيا لا الآخرة مما نُهي عنه، وميل النفس للخيرات الآخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر^(١)، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح؛ لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ويؤثر كل منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحه تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز أو بهجوم أمر مخيف تأثرت به الأعضاء وارتعدت به الفرائص وتغير اللون، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع^(٢).

فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِن فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ الْجَسَدِ»^(٣)، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وهي صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب

(١) ولا يمنع ذلك من الضرب في الأرض ونفع الناس بشرط أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه. بل الدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس وإعانتهم هو من أهم وظائف العبادات لتعدي نفعها، وعلى المعلم والداعية وصاحب البر ألا يغفل عن تركية نفسه والخلوة بها والتفتيش والتدقيق في خطرات النفس ورغباتها وإراداتها ومحاسبتها، فرأس مالك هي نفسك فلا تهملها بالغفلة عنها بسبب نفع الناس.

(٢) وانظر الكلام عن ذلك في مقدمة أعمال القلب في شرح حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِن فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ».

(٣) متفق عليه.

لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. وأعمال الجوارح تعود القلب على إرادة الخير وتؤكد فيه الميل إليه حتى يتطبع به.

وهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإن من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً؛ لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظاناً أنه يمسح ثوباً لم ينتشر. من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، كذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول بهم بأغراض الدنيا لم ينتشر. من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه، فكان وجود ذلك كعدمه، لذلك فالعبادة بغير نية باطلة. وقريب من أثرها العبادة بغفلة، فإذا قصد بالعبادة رياءً أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاد شرّاً فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها^(١) حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا، فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ: «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له

(١) ويسمونها علماء النفس (التعزيز) أي تعزيز الصفة حتى ترسخ في القلب وتنطبع في النفس.

حسنة»^(١) لأن همَّ القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيد لها تأكيداً^(٢) فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذرها إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق، ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والتقوى ههنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إن بالمدينة قوماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم الأجر، حبسهم المرض»^(٣)، لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع أحاديث فضل النية.

هذا وحقيقة النية كما ذكرنا ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً، ومن أراد الرياء محضاً فحاله واضح، نعوذ بالله منه. وأما من انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا

(١) متفق عليه.

(٢) بل وأجرًا «فإن همَّ بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات...»، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فدل هذا على أن عمل الجوارح مقصود كذلك وإن كان تابعاً لعمل القلب، ويشهد لهذا كذلك حديث «ذهب أهل الدثور بالأجور» رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم (١٩١١).

الباعث باعث آخر من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثاله: أن يصوم لينتفع بالحماية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو يتبرم من أهله وولده، أو ليغزو ويمارس الحرب ويتعلم أسبابها ويقدر بها على تهيئة العساكر وجربها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص من كرب الصمت وينفج بلذة الحديث، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو روى الحديث ليُعرف بعلو الإسناد، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو غير ذلك.

فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ونحوها حتى صار العمل عليه أخف بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه»^(١).

وبالجملة فالخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، فعلاج الإخلاص كسر- حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذا ذلك يتيسر- الإخلاص. وكم من أعمال

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٩٨٥).

يتعب الإنسان منها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورًا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكى بعضهم أنه صلى ثلاثين سنة في الصف الأول ثم تأخر يومًا لعذر فاعتزته خجلة من الناس حين رأوه في الصف الثاني، قال: فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر.

وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى. وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء؛ فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليه ويقول: غرضكم نشر دين الله، وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطان ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسره الله من نصرته الدين، وإذا ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظًا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه تعالى هذا المهم بغيره، والشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنها غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

وليت شعري لو اغتم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتصدي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للإمامة أكان غمه محمودًا أم مذومًا؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذومًا؛ لأن انقياده للحق إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكلفه بمصالح الخلق

مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟! فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق لعله ينجو ويفلح.

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات. وقال سهل رَحِمَهُ اللهُ: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة. وقيل له: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

أما حكم العمل المشوب الذي خالط الإخلاص فيه شيء من حظوظ النفس، فقد اختلف الناس في ذلك هل يقتضي ثواباً أم عقاباً أم لا يقتضي. من ذلك شيئاً أصلاً؟ وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له^(١)، وليس تخلو الأخبار من

(١) كما في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له»، وللنسائي من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد حسن: رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً

تعارض فيه^(١)، والذي يتقدح لي فيه - والعلم عند الله تعالى -: أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي - تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لاله ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع بل مُضِرٌّ ومُضِرٌّ للعقاب.

وإن كان قصد التقرب أغلب فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، فلا ينبغي أن يضع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، فمِثْقَالُ الذرة من الخير أو الشر. لا ينفك تأثيرها على القلب في إنارته أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو إبعاده، ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. أما الأحاديث التي تذكر حبوط عمله فهي محمولة على من لم يرد بذلك إلا الدنيا، أو تساوى في قلبه قصد الدنيا وقصد الآخرة فتساقطا.

والإخلاص عزيز والإنسان فيه على خطر عظيم وما أكثر الآفات! لذلك

وابتغي به وجهه» (عن محقق الإحياء).

(١) أي بحسب فهم بعض الناس، وإلا فيستحيل تعارضها تعارضاً تاماً مع صحتها وصراحتها.

قال سفيان: لا أعتد بما ظهر من عملي»^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما الاستقصاء في رؤية علل الأعمال فهو التفنيس عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل من أغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون خالصة لله وأن تصل إليه. وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر- البتة وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدواتها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد ولا نور، ثم بين القلب وبين الرب مسافة وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر وإعجاب وإدلال ورؤية عمل ونسيان المنة وغير

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (٢/ ١٦٦٦-١٦٩١) باختصار وتصريف. ويرى بعض أهل العلم ومنهم العثيمين رَحِمَهُ اللهُ أَنْ إرادة الدنيا والرياء إن كانت في أصل العمل فإنها تبطله كمن صلى لأجل الناس، أما إن عرض له خاطر الرياء أثناء العمل فدافعه وجاهده فعمله صحيح وهو مأجور على مجاهدته، أما إن لم يدافعه بل استراح إليه واطمأن فقد يصل به إلى البطلان. وسيأتي مزيد بسط إن شاء الله تعالى.

ذلك» (١).

سابعاً: الدعاء والالتجاء والضراعة والابتهال بين يدي الله تعالى ليهبه الإخلاص ويخلصه من شبكة الشرك، وأن يلح بالدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم» (٢)، ويأتي بسط ذلك في بابي الافتقار واللجأ إلى الله تعالى إن شاء الله (٣).

(١) إحسان السلوك (١٨٥، ١٨٦) باختصار.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٩) وصححه الألباني من حديث أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) هناك مسائل يُظن أنها من الرياء وهي ليست منه:

١. إذا حمدك الناس على الخير بدون قصد منك، لأن هذه عاجل بشرى المؤمن، بشرط ألا يطلب الثناء.
٢. رجل رأى العابدين فنشط للعبادة لرؤية من هو أنشط منه، فهذا ليس رياءً لأنه قصد بذلك وجه الله.
٣. تحسين وتجميل الثياب والنعل وطيب المظهر والرائحة، فالله جميل يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده.
٤. كتم الذنوب وعدم التحدث بها. فنحن مطالبون شرعاً بالستر، فكتم الذنوب ليس رياءً بل هو مما يحبه الله.
٥. اكتساب شهرة بغير طلبها، فليس من الرياء أن يشتهر المرء، ولكن الشهرة يمكن أن توقع في الرياء.
٦. إطالة الركوع ليدرك المسبوق الركعة احتساباً للأجر.
٧. وعظ الناس وتذكيرهم وتعليمهم.
٨. ترك المزاح والضحك ممن يقتدى به مخافة أن يفتن الجاهل.

٩. إظهار الفرائض التي شرعت مجهورة.
١٠. طلب الإمارة والرئاسة للدعوة إلى الله وإقامة دينه.
١١. إعطاء الهبة بقصد الإثابة عليها، أو قصد دفع الشر عن نفسه.
١٢. إظهار الفرائض حتى لا يذم من الناس إذا كان قصده خالصاً لله بفعل العبادة.
١٣. الخوف من ذم الناس لكونه عاجل عقوبة الله له.
١٤. فعل العبادة خالصة مع الاستعانة بها على طلب الرزق.
١٥. قول المرء: إني صائم لمن شاتمته.
١٦. الصوم لتحصيل مقصد شرعي كالعفة ولين القلب ونحو ذلك.
١٧. تخفيف الصلاة رحمة بالمؤمنين.
١٨. التزيّن والتجمل لحضور العبادة ولقاء الناس.
١٩. سجود الشكر والسجود أثناء القراءة عند قراءة السجديات بين الناس، وفعل الأوراد المشروعة التي يفعلها الإنسان دائماً.
٢٠. تقصير الثوب، وجعله فوق الكعبين إظهاراً للستة.
٢١. إغائة الأعداء بفعل العبادات مع الإخلاص فيها.
٢٢. القيام للزائر لفضله.
٢٣. التورية لمن أحدث في صلاته بوضع يده على أنفه إذا انصرف إيهاماً للناس برعافه.
٢٤. المبارزة في الجهاد.
٢٥. إلانة المنكب في الصلاة فينقاد لأخيه إذا طلب منه الاستواء ولا يتكبر.
٢٦. سؤال الله تعالى بالعمل الصالح لتفريج الكرب وإجابة الدعوات.
٢٧. التبكير بالذهاب للجمعة والجماعة ونحو ذلك.
٢٨. تخفيف الصلاة إذا جلس بجانبه رجل يريد.

ثامناً: استصحاب اطلاع الله تعالى على السر ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]،
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، **﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾** [البقرة:
 ١٩٧]، **﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ﴾** [آل عمران: ٢٩]، ويأتي مزيد إن شاء الله تعالى في باب المراقبة.

تاسعاً: تأمل سير وأخبار المخلصين من لدن الأنبياء عليهم السلام إلى سائر
 أولياء الله تعالى، فالنفس نزاعة إلى التشبه بمن تراه أكمل منها، والأمثلة في الأمة
 كثيرة بحمد الله تعالى.

ومن ذلك أن علي بن الحسين رحمه الله كان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع

وللتفصيل ينظر: الإخلاص حقيقته ونواقضه، عبد الله بن عيسى الأحمدى (١٩٨-
 ٢١٣).

ومن علامات الإخلاص:

١. الحماس للعمل للدين.
٢. أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.
٣. المبادرة للعمل واحتساب الأجر.
٤. الصبر والتحمل وعدم التشكي.
٥. الحرص على إخفاء العمل.
٦. إتقان العمل.
٧. الإكثار من العمل في السر.. (سلسلة أعمال القلوب ٣٤، ٣٥). وانظر: القول
 المفيد، باب الرياء.

المساكين والأرامل، وكانوا لا يعلمون من أين كان معاشهم؟ فلما مات علموا به لما فقدوه وكانوا زهاء مئة بيت في المدينة، ولما غسلوه رأوا بظهره آثار حمل الطعام على ظهره كل ليلة.

أما داود بن أبي هند فقد صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، فكان يحمل غذاءه ويتصدق به على المساكين، ثم يرجع العشيّة فيتعشى مع أهله، لذلك فقد كان السلف يتواصون بأن يكون لأحدكم خبيثة من عمل صالح لا يعلم به إلا الله. وقال محمد بن واسع: إن كان الرجل ليبيكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به. وقال الحسن البصري: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام.

وكان أيوب السخيتاني ربما حدث الحديث فيرق في مجلسه فجاءته عبرة فجعل يمتخط ويقول ما أشد الزكام. والأمثلة كثيرة عبر قرون الإسلام بحمد الله تعالى.

عاشراً: الخوف والوجل والإشفاق من آفات الإخلاص وأعظمها الشرك بالله

تعالى (١).

(١) وسيأتي مزيد بيان في باب الخوف من الله تعالى إن شاء الله تعالى.

وفي حاشية القول المفيد: «من علاج الرياء: ١. التبعيد بالأسماء والصفات وتحقيق التوحيد. ٢. أن يعلم أنه عبد محض لا يستحق لخدمة سيده شيئاً، إنما يعطيه سيده تفضلاً لا معاوضة. ٣. مشاهدته لمنّة الله وتوفيقه. ٤. مطالعة عيوبه وتقصيره. ٥. خوف مقت الله تعالى. ٦. الإكثار من عبادات السر. ٧. تذكر الموت. ٨. معرفة الرياء =

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطَلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويكفي في ذلك قول نبي الله صلوات الله وسلامه عليه: «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل أتاه الله العلم، فيقول الله تعالى: ما صنعت فيما علمت؟ فيقول: يا رب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان عالم، ألا فقد قيل ذلك. ورجل أتاه الله مالاً، فيقول الله تعالى: لقد أنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب كنت أتصدق آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان جواد، ألا قد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله تعالى، فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: يا رب أمرت بالجهاد

ومداخله وخفاياه. ٩. النظر في عاقبة الرياء. ١٠. الدعاء. ١١. مصاحبة أهل الإخلاص».

وهناك بحث قيم بعنوان: الإخلاص حقيقته ونواقضه لعبد الله بن عيسى الأحمدى (رسالة ماجستير).

فقاتلت حتى قُتلت. فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك» قال أبو هريرة: ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أبا هريرة، أول خلق تُسعر نار جهنم بهم يوم القيامة»^(١).

وعن أبي فضالة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢)، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء»^(٣)، لذلك فحتى تبرأ من الشرك كله عليك بتحقيق وتصحيح شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) ولا بد أن تعرف قدرها وعظمتها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيق بمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً، فيكون تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله هو أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٤٢٠٢).

(٢) رواه الترمذي في التفسير وقال: حسن غريب. ورواه أحمد (٤٦٦ / ٣)، وحسنه الألباني والأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال غير واحد من السلف: هو عن قول: لا إله إلا الله^(١)، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟^(٢) فالسؤال عن (ماذا كانوا يعبدون) هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن (ماذا أجابوا المرسلين) سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تشني عليه الخناصر، ويعصّ عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يؤخذ على فضله، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه يُطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره، ولا رب سواه»^(٣).

قلت: وهذا من أنفس الكلم وأنصحته، فله دره من خبير بالقلوب. أيضًا فما أراد الله من أحب العلو والظهور، وكم من حامل سالم وظاهر مكمور به. وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى كَلَامِ الْهَرَوِيِّ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي مَنَازِلِ السَّائِرِينَ قَوْلَهُ: «أَصْحَابُ السَّرِّ هُمُ الْأَخْفِيَاءُ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِمُ الْخَبْرُ»: قد يريد به حديث سعد بن

(١) تفسير الطبري (١٤ / ١٣٩-١٤١).

(٢) تفسير الطبري (١٤ / ١٤١).

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم (٢ / ٦٤٤، ٦٤٥).

أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قال له ابنه: أنت ههنا والناس يتنازعون الإمارة. فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(١)، كذلك قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»^(٢)، وقوله في الحديث الآخر - وقد مر به رجل - فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: هذا حري إن شفع أن يُشَفَّع، وإن خطب أن ينكح، وإن قال أن يُسمع لقوله. ثم مر به آخر فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: هذا حريُّ إن شفع ألا يُشَفَّع، وإن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يُسمع لقوله. فقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»^{(٣)(٤)}.

فتحقيق كلمة التوحيد ونفي ضدها يكون في الباطن أولاً، ولها بركة لا تحصرها العبارة.

قال ابن القيم: «لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبانها واستقصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما

(١) مسلم (٢٩٦٥).

(٢) مسلم (٢٦٢٢).

(٣) البخاري (٥٠٩١).

(٤) المدارج (٣/٧١٣).

الإخلاص والتوحيد

كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه، والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكلية إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم له وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلايته، فقال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره، والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخذت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرّها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الدنيا وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نياً آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان»^(١).

فله ما أعظمها من كلمة، وما أكبر جرم من نقضها ولم يرفع بها رأساً! نعوذ بالله من الشرك كله دقه وجله أوله وآخره صغيره وكبيره.

(١) الفوائد، ابن القيم (٧٧، ٧٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ^(١): «اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عَصِي - الله به، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الصحيحين أنه ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٢)، والند: المثل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فمن جعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة، فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود، الذي تأله القلوب وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية، فكيف يصلح أن يكون إلهاً؟! قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فالله سبحانه هو المستحق أن يعبد لذاته، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فذكر الألف واللام التي تقتضي - الاستغراق لجميع المحامد، فدل على أن الحمد كله لله، ثم حصره بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهذا تفصيل لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته من المحبة والخوف والرجاء والأمر

(١) وهي من أجمل وأتم ما كتب في مقدمات التوحيد وتلقيه وتأسيسه، ونفي ضده ونقضه.

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الإخلاص والتوحيد

والنهي. ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم؛ لأن الرب سبحانه هو المالك، وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء.

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى، قال تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] فلا يرى نفعاً ولا ضرراً ولا حركة ولا سكوناً ولا قبضاً ولا بسطاً ولا خفضاً ولا رفعاً إلا والله سبحانه فاعله وخالقه وقابضه وباسطه ورافعه وخافضه، فهذا الشهود هو سرّ الكلمات الكونية وهو علم صفة الربوبية، والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات.

فالتحقيق بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء يكون عنه كشف علم الإلهية. والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية، وهو علم التدبير الساري في الأكوان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فإذا تحقق العبد لهذا المشهد، ووقفه لذلك، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم والجمال داخل في مشهد الربوبية.

ولهذا قيل: إن هذه الآية جمعت أسرار القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء كما ذكرنا، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم، وترك الاختيار،

وجميع العبوديات داخلة في ذلك.

فإذا تقرر هذا؛ فالشرك إن كان شرًا يكفر به صاحبه. وهو نوعان: شرك في الإلهية وشرك في الربوبية.

فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله نداءً، أي مثلاً في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى في شأنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال عن لسانهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال النبي ﷺ لخصين: «كم تعبد؟» قال: ستة في الأرض وواحدًا في السماء. قال: «فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء. قال: «ألا تسلم فأعلمك كلمات» فأسلم، فقال النبي ﷺ: «قل: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي»^(١).

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿قُلْ

(١) الترمذي (٣٤٨٣) بلفظ: «وأعذني من شر نفسي» وقال: حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٩٨).

لَمِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٥] إلى قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم كما ذكرنا، اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله^(١) كما يحب الله تعالى فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٦ - ٩٨] وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك.

وأما النوع الثاني: فالشرك في الربوبية، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو الرافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته.

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر إلى المعطي الأول مثلاً، فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(٢)، لأن النعم كلها لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا نُنمِّدُ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فالله سبحانه هو المعطي على

(١) من دون: أي من غير. وفيها الإشارة إلى نقص الغير.

(٢) أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٨٢ / ٥) وصححه النووي في رياض الصالحين.

الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي هو الذي أعطاه وحرّك قلبه لعطاء غيره، فهو الأول والآخر.

ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١)، فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله، ولا يضرّ غيره، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية.

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم، وأراح الناس من لومه وذمه إياهم، وتجرد التوحيد في قلبه، فقوي إيمانه وانشرح صدره وتنور قلبه، ومن توكل على الله فهو حسبه. ولهذا قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: من عرف الناس استراح. يريد والله أعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرّون.

وأما الشرك الخفي: فهو الذي لا يكاد أحد يسلم منه مثل أن يجب مع الله غيره، فإن كانت محبته لله مثل حب الأنبياء والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة؛ لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فليس الكلام

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في هذا.

إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى؛ إذ لو كملت محبته لم يجب سواه، ولا يرد علينا الباب الأول؛ لأن ذلك داخل في محبته، وهذا الميزان، فكلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلّت، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت، وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه، قال: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء وغيره، فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد يسلم منه إلا من عصمه الله تعالى، روي أن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل (١).

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها: الإخلاص لله عز وجل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى متابعة الأمر والنهي (٢).

وقد بوب الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ فِي كتاب التوحيد باب: قول الله تعالى:

(١) ويأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١ / ٨٨ - ٩٤) باختصار وتصرف.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وذكر فيه قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتك، وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص^(١)، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها (فلان) هذا كله به شرك^(٢).

قال الشارح: «إن هذه الأمور من الشرك خفية على الناس، لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي، فكيف إذا كان على صفاة؟ فكيف إذا كانت سوداء؟ فكيف إذا كانت في ليلة مظلمة؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام، وعسر- التخلص منه، ولهذا جاء في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه لكتاب التوحيد: «حالات (لولا) أربع: ١. الكمال: لولا الله. ٢. الجواز: لولا الله ثم فلان. ٣. الشرك الأصغر: لولا الله وفلان. ٤. الشرك الأكبر: لولا الله وفلان (على جهة التعظيم)». (٢) رواه ابن أبي حاتم بسند جيد كما ذكره الشارح سليمان آل الشيخ.

نعلمه»^(١)، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنْ أَحَدَكُمْ لِيُشْرِكْ حَتَّى يَشْرِكَ بِكَلْبِهِ، يَقُولُ: لَوْلَاهُ لَسَرَقْنَا اللَّيْلَةَ»^{(٢)(٣)}.

وقال الحافظ ابن رجب في تعليقه على حديث: «مَا ذُبُّوا جَائِعَان»^(٤): «وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ يَقْدُمَ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ عِنْدَ النَّاسِ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَرَى النَّاسَ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ، وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ أَبْوَابِ الرِّيَاءِ».

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْإِحْيَاءِ: «وَمَنْ الرِّيَاءُ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ الْعَمَلَ خَالِصًا لِلَّهِ وَلَا يَرِيدُ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَيْهِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَبْدَأَهُ النَّاسُ بِالسَّلَامِ، وَيَهْشُوا لَهُ، وَيَقْضُوا حَوَائِجَهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ ثَقُلَ هَذَا عَلَى قَلْبِهِ كَأَنَّهُ يَتَقَاضَى الْإِحْتِرَامَ مَعَ الطَّاعَةِ الَّتِي أَخْفَاهَا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: «فَكَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَمَا تَفْرُدُ بِالْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَفْرُدَ بِالْعِبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِصُ مِنَ الرِّيَاءِ الْمَقِيدِ بِالسَّنَةِ»^(٥).

(١) رواه أحمد والطبراني وله شواهد، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٣٦): حسن لغيره.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٥٨٦-٥٨٨) باختصار.

(٤) الترمذي (٢٣٦٧) وقال: حسن صحيح.

(٥) عن تيسير العزيز الحميد (٥٢٥).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «واعلم أن العمل لغير الله أقسام، فتارة يكون رياءً محضاً، فلا يراد به سوى مراعاة المخلوقين لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك وصف الكفار بالرياء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه. ومنها حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمَسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ» فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لَهُ وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشَّرِكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ

(١) أبو داود والنسائي بسند جيد.

معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء؛ مثل أخذ أجرة للخدمة أو الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية. فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «إِن الغزاة إِذَا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم، فَإِن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم»^(٢)^(٣).

وتعقبه الشيخ سليمان آل الشيخ بقوله: «هذا لا يدل على أنهم غزوا لأجلها، فلا يدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلبس غرضاً». قال^(٤): «وقد ذكرنا في ما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا.

قلت^(٥): ظاهر حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد وهو يتبغي عرضاً من عرض الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له» فأعاد عليه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «لا أجر له»^(٦)، وهذا يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجر الخدمة أو أخذ الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن

(١) مسلم.

(٢) مسلم.

(٣) السابق (٥٢٨، ٥٢٩) باختصار.

(٤) أي ابن رجب.

(٥) أي سليمان آل الشيخ.

(٦) أبو داود.

يكون معنى يريد الجهاد، أي يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد، إنما نوى عرض الدنيا»^(١).

وقال ابن رجب: «وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره. وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس^(٢) كأنه خرج لِدِينِهِ، فإن أعطي شيئاً أخذه. وكذا روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم إن أعطي درهماً غزاً، وإن لم يعط درهماً لم يغز، فلا خير في ذلك.

قلت: وهذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة، بحيث تكون هي الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه^(٣) كالذي يلتبس الأجر والذكر، فهذا الأجر له. وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لا يبالي به، سواء حصل أم لم يحصل، كالذي أجمع على الغزو أعطي أم لم يعط فهذا لا يضره، ونحوه التجارة في الحج كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

(١) وهذا خلاف الظاهر.

(٢) مسألة: هل يعيد العمل الذي رآه فيه؟ قال شيخ الإسلام: أما المندوبات فحسن أن يعيد، أما الفرائض فلا لأنه من الوسوسة.

(٣) كما مر من كلام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحاً أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن البصري وغيره^(١). وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل مرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج؛ فأما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية.

أما إذا كان العمل خالصاً ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر. بذلك لم يضره، وفي هذا المعنى جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^{(٢)(٣)}.

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى. قال: الشرك الخفي»^(٤)، يقوم الرجل فيصلح فيزين صلاته لما يرى من

(١) وانظر: أضواء البيان للشنقيطي (٩ / ٣٠٩).

(٢) رواه مسلم.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٥٢٨-٥٣١).

(٤) فالدجال زمنه محدد، أما الرياء ففي كل أزمان الأمة.

نظر رجل^(١).

قال الغزالي: «وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يتلى به العلماء والعباد، والمشمرون على ساق الجدل لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلب الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العلم والعمل، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحبت مدحهم، وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل، فأصاب النفس في ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله وعبادته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول الناقدة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يسقط من رؤوس الصديقين حب الرئاسة»^(٢).



(١) رواه أحمد بسند حسن.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ١١٣٣).

إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا

وهناك آفة للإخلاص شبيهة بالرياء وليست منه، وهي إرادة الإنسان بعمله الدنيا^(١)، فالرياء لطلب الجاه. أما إرادة الدنيا فالعمل خالص لله ولكن بلا إرادة ثواب الآخرة، بل استعجل صاحبه ثواب الدنيا، وقد يدخل فيه الرياء من باب العموم والخصوص فيكون الرياء أخص، بأنه لا إخلاص فيه أصلاً لا وجه الله ولا الدار الآخرة. وهذا أعم بكونه يشمل كل ما لم تُردَّ به الآخرة. قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦] أي من أراد بأعماله بالصالحات الحياة الدنيا دون الآخرة.

وقد قال الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ فِي معنى الآية ما ملخصه: «ذكر عن السلف^(٢) من أهل العلم فيها أنواع مما يفعلها الناس اليوم ولا يعرفون معناه:

(١) وقد بوب إمام الدعوة الإصلاحية رَحِمَهُ اللهُ فِي كتاب التوحيد باباً بهذا المسمى بعد باب الرياء.

(٢) انظر: طبقات المكلفين، ابن القيم.

النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله، من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همّة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، فهو الذي ذكره مجاهد في الآية أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيتته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياسته، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد^(١) كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لأنهم عملوا

(١) كالمعلم للقرآن الكريم والعلوم الشرعية، والمؤذن والإمام والمصلي التراويح بالناس والمحتسب والقاضي والغازي الذين لو توقف راتبهم ورزقهم لتركوا ذلك العمل لأنه غايتهم. ولكن إذا كان قصدهم الكفاية بالرزق والانشغال والتفرغ لتلك العبادة فلا يدخلون في الوعد إن شاء الله، كذلك من كانت إرادتهم تبعاً للعبادة لا دافعاً ومقيماً لها، وإن كان الإخلاص أن يعافيه الله من ذلك الاستشراق كله.

لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين الناس، ولا يحصل لهم طائل. والنوع الأول أعقل من هؤلاء؛ لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر- العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً لله وحده لكنه على عمل يكفره كفرةً يخرجهم من الإسلام؛ كاليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة^(١)، ومثل كثير من الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية^(٢).

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي الْقَوْلِ الْمَفِيدِ: «فإن قيل: هل يدخل في الوعيد من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بعلمهم؟ فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً. فنقول لهم: أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على

(١) ابتغاء وجه الله: أخلصوا في ذلك العمل. والدار الآخرة: أي لم يريدوا عاجل الدنيا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٣٦، ٥٣٧) وتلخيصها كالتالي:

١. من أراد حفظ دنياه بعبادته.

٢. المرائي.

٣. من أراد التوصل بالعبادة لحظ دنيا، فلو لم تحصل دنياه لترك ذلك العمل.

٤. من أراد الله والدار الآخرة لكنه على عمل آخر مخرجه من الإسلام.

الشهادات. والناس لا يستطيعون الوصول لمنفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، فيدخلها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة فإنها لا تهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنين؛ حسنى الدنيا وحسنى الآخرة فلا شيء عليه، إلا أن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فرغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب. فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص؟ أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً، فلم يقصد مراعاة الناس، بل قصد أمراً مادياً، فأخلصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء، يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره»^(١).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في التمهيد: «الأعمال التي يعملها العبد ويستحضر فيها ثواب الدنيا على قسمين:

الأول: أن يكون العمل الذي عمله، واستحضر فيه ثواب الدنيا وأراده، ولم يرد ثواب الآخرة، لم يرغب الشرع فيه بذكر ثواب الدنيا، مثل الصلاة والصيام ونحو ذلك من الأعمال والطاعات، فهذا لا يجوز له أن يريد به الدنيا، ولو أراد به الدنيا فإنه مشرك ذلك الشرك.

(١) القول المفيد، العثيمين (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧).

الثاني: أعمال رتب الشارع عليها ثواباً في الدنيا، ورغب فيها بذكر ثواب لها في الدنيا مثل صلة الرحم، وبر الوالدين ونحو ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من سره^(١) أن ييسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٢).

فهذا النوع إذا استحضر- في عمله حين يعمل ذلك العمل ذلك الثواب الدنيوي وأخلص لله في العمل، ولم يستحضر- الثواب الأخروي؛ فإنه داخل في الوعيد^(٣)، فهو من أنواع هذا الشرك. وإن استحضر- الثواب الدنيوي والثواب الأخروي معاً، أي له رغبة فيما عند الله في الآخرة، ويطمع في الجنة ويهرب من النار، واستحضر- ثواب هذا العمل في الدنيا فإنه لا بأس بذلك؛ لأن الشرع ما رغب فيه بذكر الثواب في الدنيا إلا لأجل الحُصّ عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٤)، فمن قتل حربياً في الجهاد لكي يحصل على

(١) قلت: وهذه الكلمة «من سره» كافية في إباحة ما ترتب على هذا السرور من ميل القلب نحو هذا الثواب الدنيوي التابع لإرادة الآخرة، وإن كان دون درجة المخلصين المقربين.

(٢) رواه أحمد بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأصله متفق عليه من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) وبعض أهل العلم لم يدخله في الوعيد بحجة أن الشارع هو من أذن بتلك الإرادة المتمحضة للدنيا. وهذا القول فيه نظر، فالشارع أذن بميل القلب من جهة المشاركة لا من جهة التمحيز، بدليل أن كل عمل عليه ثواب دنيوي، رتب عليه أجور أخروية كذلك.

(٤) رواه أحمد من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه شعيب الأرنؤوط.

السلب ولكن قصده من الجهاد الرغبة فيما عند الله جل وعلا، مخلصاً لوجه الله، لكن أتى هذا من زيادة الترغيب له، ولم يقتصر. على هذا الغرض الدنيوي بل قلبه معلق أيضاً بالآخرة، فهذا النوع لا بأس به، ولا يدخل في النوع الأول مما ذكره السلف في هذه الآية.

النوع الثاني: أن يعمل العمل الصالح لأجل المال، مثل أن يدرس ويتعلم العلم الشرعي لأجل الوظيفة فقط، وليس في همه رفع الجهالة عن نفسه، ومعرفة العبد بأمر ربه ونهيه والرغبة في الآخرة، فهذا داخل في ذلك، أو حفظ القرآن ليكون إماماً في المسجد ويكون له الرزق الذي يأتي من بيت المال، فغرضه من هذا العمل إنما هو المال، فهذا لم يعمل العمل صالحاً إنما عمل العمل الذي في ظاهره أنه صالح، ولكن في باطنه قد أراد به الدنيا.

النوع الثالث: أهل الرياء، الذين يعملون لأجل الرياء.

النوع الرابع: الذين يعملون العمل ومعهم ناقض من نواقض الإسلام. وهنا إشكال أورده بعض أهل العلم في الآية ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، فهي في الكفار الأصليين أو من قام به مكفر، فكيف تكون هذه الأنواع المذكورة لمسلمين من ضمنها؟

والجواب: أن السلف أدخلوا أصنافاً من المسلمين في هذه الآية، وهي من آيات الوعيد، فمن أراد الدنيا بكل عمل وليس معه الإيمان والإسلام المصحح لأصل أعماله فهو مخلد في النار، أما من كان معه أصل الإيمان وأصل الإسلام

الذي يصح به عمله فهذا قد يحبط العمل، بل يحبط عمله الذي أشرك فيه وأراد به الدنيا، وما عداه لا يحبط»^(١).

ويرى بعض أهل العلم أن إرادة ثواب الدنيا فقط بالعمل الصالح الذي رتب عليه الشارع ثواباً دنيوياً جائزة، وأنه لا يؤخذ بذلك لكنه يحرم من ثواب الآخرة، بحجة أن الشارع هو من أباح له تلك الإرادة بالتوجيه لثوابها الدنيوي. قلت: وفي هذا نظر، من أمور:

الأول: عمومات أدلة النهي عن إرادة الدنيا وزيتها بأعمال الآخرة.

الثاني: الأمور التي أذن الشرع بميل القلب فيها لثواب الدنيا إنما هي من جهة التبعية والمشاركة الأقل لإرادة الآخرة وليست من جهة التمحيض والاستقلال، بدليل أن كل عمل رتب الشرع عليه ثواباً دنيوياً فقد رتب عليه أجوراً أخروية كذلك، وهي أعظم، فإرادة الآخرة هي المحرك الأصلي، أما الدنيا فهي مرغّب تابع.

الثالث: بما أن إخلاص العمل لله تعالى حتم في كل عبادة ولم يستثن من ذلك شيء، فكذلك إخلاص إرادة الآخرة إلا ما استثني على سبيل التشريك الأقل والتبعية من باب الحض والحث.

رابعاً: الإذن المستثنى مما أصله المنع مقدر بأدنى قدر ممكن، وهو هنا في

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ (٤٠٦-٤٠٩) بتصرف يسير. وانظر: عدة الصابرين، ابن القيم (٢٧٠-٢٧٤)؛ حيث يرى أن هذه الآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد.

التشريك الأدنى والتبعية فيقدر بقدرها ولا يتجاوزها من جهتين:

الأولى: أن تكون الإرادة تابعة للأخرة بحيث تكون إرادة الآخرة هي الغالبة.

الثانية: ألا يتجاوز الأمور التي ذكرها الشرع إلى أمور أخرى، فلا قياس هنا. خامساً: أن هذا القول أخذ بالاحتياط، والاحتياط المعبر محمود، خاصة في مسائل التوحيد وأصول الدين.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «فإن إرادة الدنيا قاذحة في إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب»^(١).

قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفّع لم يشفّع»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «فسأه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء وخبر، وهو قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»،

(١) عدة الصابرين، ابن القيم (٤٠٥).

(٢) رواه البخاري.

وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبَدَ المال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ بِسَخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]. فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو صورة، أو نحو ذلك من أهواء النفس، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هورق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

الأول: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون الحال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حمارة الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن تستعبده فيكون هلوغاً.

الثاني: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي ألا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من شعب العبادة لغير

الله^(١)، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار...»، فهو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطها إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويجب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان^(٢).

وقد عقد الغزالي رَحْمَةُ اللَّهِ فَصُولاً في ذم الجاه والرياء، ألخص مهماتها:

قال في بيان فضيلة الخمول: «قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»^(٣)، وقال: «ألا أدلكم على أهل الجنة؛ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره»^(٤). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب^(٥)، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

(١) لاحظ شدة ارتباط أعمال القلوب ببعضها، فيقوى مجموعها بقوة أفرادها، كذلك العكس؛ ويضعف بضد ذينك، كما أن منها شعباً كباراً بمنزلة الأصول والينابيع لغيرها، فيكون ارتباطها بالصلاح أحتم. والله المستعان.

(٢) عن تيسير العزيز الحميد (٥٤٠، ٥٤١) باختصار.

(٣) مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) متفق عليه، من حديث حارثة بن وهب.

(٥) لعله قصد ألا يتكلف العبد في تزيين ثيابه.

وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء، أصحاب قوت وعناء.

وقال الفضيل: إن قدرت على ألا تُعرف فافعل، وما عليك ألا تعرف، وما عليك ألا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى.

أما المحمود من الجاه والشهرة وانتشار الصيت فهو ما شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وقال أيوب السخيتاني: والله ما صدق الله عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه.

وكان خالد بن معدان إذا كثرت حلقتة قام مخافة الشهرة.

وعن أبي العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام.

ورأى طلحة قومًا يمشون معه نحوًا من عشرة، فقال: ذباب طمع وفراش نار.

وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر

فعلاه بالدرّة، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يومًا من منزله فأتبعه ناس فالتفت إليهم

فقال: علام تتبعوني؟! فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً.

وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجل قلما تلبث عليه قلوب الحمقى.
وخرج يوماً فأتبعه قوم، فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا
من قلب المؤمن؟

وصحب رجل ابن محيريز في سفر، فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن
استطعت أن تعرف ولا تُعرف، وتمشي - ولا يمشى إليك، وتُسأل ولا تُسأل
فافعل.

وقال الثوري: كانوا^(١) يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب
الردئية^(٢)، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً.

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب
بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل
فساد.

فإن قلت: فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة
العلم؟ وكيف فاتتهم فضيلة الخمول؟

فاعلم أن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من غير تكلف من العبد
فليس بمذموم. نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف
إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به ألا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به

(١) أي السلف.

(٢) وهذا ملحظ نفيس، فقد تكون الشهرة بإظهار الزهادة والورع.

فيضعف معهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى حتى يكون سبباً لنجاتهم فيثاب على ذلك.

وقد ذم الله تعالى حب الجاه فقال: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣]، فجمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي من الإرادتين جميعاً. وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زيتها. وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم»^(١).

واعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها. ومعنى الجاه: ملك القلوب^(٢) المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليها ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على استغلال قلوب الناس ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه، وكما أن الأموال تكتسب بأنواع الحرف والصناعات،

(١) البيهقي في الشعب (٩٧٨٦) وهو صحيح بشواهده عند الطبراني وأبي يعلى وغيرهما.

(٢) أي يكون ذا سلطان عليها محبة أو حاجة أو تعظيماً.

فكذلك تكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات.

فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، ولا يشترط أن يكون الوصف كما لا في نفسه، بل يكفي أن يكون كما لا عنده وفي اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كما لا كما لا، ويدعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال القلب، وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتهما.

وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعييد، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم^(١) وملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم؛ لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه، ولو خُلِّي ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً، وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع! مع الفرح بالعبودية والطاعة له! فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير.

(١) وهي عبودية وملك بحسبها، أي أجزاء من شعبها، فهي مطلق العبودية والملك لا العبودية المطلقة والملك المطلق، ومبالغة المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ فِي التَّوَصِيْفِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ لِقَاعِ الصِّفَةِ حَتَّى يَجْتَنِّهَا بِعُرُوقِهَا مِنَ الْقَلْبِ حَتَّى وَلَوْ مَعَ نَدْرَةٍ بَعْضِ الْأَمْثَلَةِ وَالْأَوْصَافِ. وَقَدْ أَطْلَتِ النُّقْلَ فِي آفَةِ الْجَاهِ لِغَفْلَةِ كَثِيرٍ مِنَ الصَّالِحِينَ عَنِ الْحَذَرِ مِنْهَا وَتَسَاهُلِهِمْ فِي مَبَادئِهَا.

فإذًا: معنى الجاه هو: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحببه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة، فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة والسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب: اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص، إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال أو قوة بدن، أو شيء مما يعتقد الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلب فتكون سبباً لقيام الجاه.

واعلم أن السبب الذي يقتضي- كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي- كون الجاه محبوباً، بل يقتضي- أن يكون أحب من المال، فأنت تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانها، إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا ملابس ولا منكح، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنها محبوبان لأنها وسيلة إلى جميع المحاب، وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه، بل حب الجاه مترجح على حب المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر- من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم

أو الزاهد الذي تقرّر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، أما الرجل الخسيس إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ذلك.

الثاني: أن المال معرض للبلوى والتلف، أما خزائن القلوب فمحروسة بأنفسها.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير تعب، بخلاف المال.

وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جمع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثاً، وكذلك يجب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليروه بهال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة^(١).

وهذا الحب الذي لا تنفك عنه القلوب له سببان: أحدهما جلي تدركه الكافة، والآخر خفي وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن

(١) إلا إذا كان بحق؛ فإنهم شهداء الله في أرضه.

أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف؛ لأن الشفيق بسوء ظنّ مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، عن طريق الاستعانة بجاهه الذي في قلوب الناس لأخذ أموالهم.

وأما السبب الثاني: وهو الأقوى؛ لأن الروح أمر رباني، وصفه تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وللقلب ميل إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء، وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتعبر وطلب الاستعلاء، والإنسان بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض المشايخ: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنه لا يجد له مجالاً، وهو كما قال^(١)، فإن العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فتحب أن تستولي على كل الأشياء الموجودة معها، ومطلوب القلوب الكمال، والكمال بالعلم والقدرة.

(١) وفيه نظر كبير، ولا أظنه يصح، ويكفي في ذلك الأنبياء فإن بواطنهم طاهرة قطعاً من هذه الرغبة الكامنة وهم غير محتاجين لمجاهدتها وكتبها.

هذا والجاه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعو إلى الخدمة ليس بمذموم، كذلك حبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، كذلك أستاذه لإرشاده وتعليمه والعناية به، كذلك سلطانه لحمايته فليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما، إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء^(١)؛ لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته، ويود لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فكل ما يُراد للتوصل به للمحجوب، فالمحجوب هو المقصود المتوصل إليه، فحبه لأجل التوصل به إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبه لعينه وذاته فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية.

واعلم أن من غلب عليه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق،

(١) دورة مياه (بيت الخلاء).

مشغوفاً بالتودد إليهم والمرءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمرءات بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضارين، فحب الجاه من المهلكات، وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الحياة - وهو كمال القدرة على قلوب الناس - فذلك إن صفا وسلم فأخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك له الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن عرف ذلك صغر الجاه في عينه، وهذا لا يكون إلا لمن ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات»، فانظر كيف من نظره نحو المستقبل، وقدّرته كائنًا واقعًا، وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: «أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل»^(١).

(١) فالحسن نقله إلى آخر لحظات الدنيا واستقبال الآخرة، وعمر نقله إلى أولى ساعات الآخرة، وهذا من فقههما رحمهما الله تعالى. وكما كتب أحدهم لأخيه: «أما بعد،

فهؤلاء لاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا، وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، لذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وأما العلاج من حيث العمل: فبأن يقطع الطمع عن الناس بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، وينظر في أحوال السلف في ذلك وإيثارهم للخمول على الجاه ورغبتهم في الله والدار الآخرة.

وهل هنا أمر مهم، وهو أن كثيراً من الناس هلكوا بخوف مذمة الناس أو بحب مدحهم، فصارت حركاتهم موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، وعلاج حب المدح أن تراجع عقلك، وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحني بها هل أنا متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها، فهي إما صفة تستحق المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية؛ لأن الفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح لها بل بوجودها.

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي ألا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخط الخاتمة باق، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا^(١). وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خالٍ منها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: ما أكثر العطر الذي في أحشائه، وهذا في غاية الجهل والسفه.

أما كراهية الدم فعلاجه أن تعلم أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون صادقاً، وقصد النصح والشفقة، أو أن يكون صادقاً ولكن قصد الإيذاء، وإما أن يكون كاذباً.

فإذا كان صادقاً وقصد النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تتقلد مثته، فإنه من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، أما اغتنامك بذلك فهذا في غاية الجهل.

(١) والصحيح أن الأمر ليس بهذه السوداوية، بل لا بأس بشيء من الفرح الديني استعانة به على الطاعة، وقد حُببت الطيبات للمؤمنين وسيدهم ﷺ يقول: «حُبب إلي من الدنيا النساء والطيب» رواه النسائي (٣٩٣٩) وصححه الألباني. ومن المستقر أن الفرح يتبع الحب.

والمقصود أن على المؤمن أن يعطي كل دار قدرها وأن يحسن سياسة نفسه بالحكمة والعلم والرفق والحزم مع كون الآخرة هي محور حياة المؤمن وأولوياته واهتماماته، ووضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى.

أما إن كان قصده الإيذاء فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكركه إن كنت غافلاً عنه، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته، وكل ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدت منه، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتحت لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمّة، وأمّا ما قصد العدو من التعنت فهي جناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو منه؟

أما إذا افتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي ألا تكره ذلك ولا تشتغل بدمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستر الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلع على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء منه.

الثاني: أن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتخزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله؟

الثالث: أن تعلم أن المسكين قد جنى على دينه، وأهلك نفسه بافترائه، وتعرض لعقاب الله الأليم والسقوط من عين الله تعالى، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه، فُشِّمَتْ به الشيطان، وتقول: اللهم أهلكه. بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما دعا رسول الله ﷺ

لقومه بعد أن كسروا ثنيتيه وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد^(١).

وفي طريقة الكشف عن الرياء وتمييزه عن الإخلاص عند رؤية الناس العمل - لشدة خفائه - فعليك أن تتمثل نفسك وبينك وبين الناس حجاب بحيث لا يعلمون بك، فإن نشطت نفسك للعبادة فهذا إخلاص، وإلا فرياء^(٢).

ومن نعم الله على عبده أن يوفقه للعبادة ثم يوفقه لإحسانها، ومن إحسانها تجريدها لوجه الله، وإخفاؤها عن خلقه إلا ما شرع الجهر به. قال شيخ الإسلام: «إن أعظم النعم نعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد. وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿لَا نَقْصُصُ رِيَاءَكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].»

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار! لهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر. مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحد.

والقوم أعظم شيئاً كتبنا لأحوالهم مع الله عز وجل، وما وهب الله من محبته

(١) وكان الإمام أحمد يعفو ويصفح ويسامح ويقول: ما ينفعك أن يعذب الله أحداً بسببك.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ١١٣٣-١١٥٢) باختصار وتصرف.

والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمبتدئ^(١) السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله^(٢).

هذا وإن من آفات الإخلاص بل من نواقضه الشرك الأكبر، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاحها ورام فلاحها أن يتحرز منه غاية التحرز، وأن يجعل همه الأعظم تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك.

ومن نظر إلى حال المسلمين اليوم فطَرَ قلبه الأسى مما يراه من واقع المنتسبة للإسلام الذين جرف الكثير منهم الشيطان إلى غيابات الشرك وأحوال الوثنية^(٣)، فلا نفك نرى كل يوم دعاة على أبواب جهنم يزينون للأمة دين أبي جهل وأبي لهب ويزهدونهم في ملة محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، تحت ستار شبه أوهى من بيت العنكبوت^(٤)، تقاذفتها أمم الجهل والخرافة، وجددها

(١) في الأصل: المهتدي ولعله تصحيف.

(٢) الفتاوى (١٨/١٥).

(٣) انظر: دمعة على التوحيد، حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة، وهو رصد لحال الناس مع القبور وغلوهم فيها. من إصدار المنتدى الإسلامي.

(٤) انظر: كشف الشبهات، محمد بن عبد الوهاب، تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، الصنعاني، إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان، ابن القيم، وغيرها.

الإخلاص والتوحيد

الرجيم في نفوس كثير من العامة والخاصة^(١)، مع أن نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد بين البيان التام وبلغ البلاغ الوافي وسدّ الذرائع الموصلة للشرك، ولكن ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهَلْ لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ويكفي في التخويف من الشرك أن المرء لو وافى يوم القيامة بأعمال كأعمال النبيين والمرسلين ثم كان معه شرك أكبر لحبط عمله وصار هباءً منثوراً، وخلد صاحبه في النار أبداً. عياداً بوجه الله تعالى، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]. فالتوحيد هو رأس الشكر.

والنار مثوى المشركين قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومن الشرك الأكبر اتخاذ الوسائط من الموتى أو الجن ونحوهم، ودعاء القبور، والاستعانة بأهلها، ويا لله كم من مشرك قد خرج من ربقة الإسلام والإيمان وهو معدود من المسلمين، وما ثم إلا توفيق الله تعالى أو النار. فاللهم سلم سلم؛ قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أنواع الشرك: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فضلاً عما من استغاث به، وسأله قضاء حاجاته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع

(١) وقذف في قلوبهم شبه الأولين؛ فتوسلوا بالموتى بزعم أنهم وسائط، وهذا عين دين المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك.

والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ونستغفر لهم، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة وقضاء الحوائج والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فغيروا دين الله وعادوا أهل التوحيد، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل مكان وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ أَنْ تَرْحَمَنِي إِنَّ رَحْمَتَكَ أَرْحَمُ الرَّحِمَاتِ ﴿٣٦﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] (١).

كذلك فليحذر من بقية نواقض التوحيد وهو ادم الإخلاص كالكفر الأكبر ومنه كفر الجحود وكفر التكذيب وكفر الإباء والاستكبار وكفر النفاق وكفر الإعراض، وليحرس ألفاظه وأفعاله بل وخطراته، قبل أن تزل قدم بعد ثبوتها، فيندم ولات حين مندم، ويريد الخلاص ولات حين مناص!

ثم عليه مرة أخرى أن يخاف من النفاق ويهرب منه أشد من فرار المرعوب من السبع الضاري، فالمنافق نفاقاً اعتقادياً في الدرك الأسفل من النار، قال جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) المدارج (١/ ٦٠٤، ٦٠٥) باختصار.

[١٤٥]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر فإنه أمر خفي على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به؛ فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

والأكبر منه يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم القرآن، وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشُّبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون بذلك أنهم مصلحون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألستهم السنة المسلمين وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا مِمَّا قَالَتْ هَذِهِ حَقٌّ وَمِمَّا قَالَتْ هَذِهِ حَقٌّ﴾ [البقرة: ٨]، فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلّى الله جل جلاله، وقد كشف عن ساق ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله وتفصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا حذيفة نشدتك بالله، هل سمّاني رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أخبر بعدك أحداً^(١). وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم من أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل^(٢).

وعن الحسن البصري قال: ما آمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن.

وذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

(١) كتر العمال (١٣ / ٣٤٤).

(٢) البخاري تعليقا، الفتح (١ / ٣٥).

زَرَعُ النِّفَاقِ يَنْبِتُ عَلَى سَاقَتَيْنِ: سَاقِيَةِ الكَذِبِ، وَسَاقِيَةِ الرِّيَاءِ. وَمَخْرَجُهُمَا مِنْ عَيْنِيهِ: عَيْنِ ضَعْفِ البَصِيرَةِ، وَعَيْنِ ضَعْفِ العَزِيمَةِ. فَإِذَا تَمَّتْ هَذِهِ الأَرْكَانُ الأَرْبَعُ اسْتَحْكَمَ نَبَاتُ النِّفَاقِ وَبَنِيَانُهُ، وَلَكِنَّهُ بِمَدَارِجِ السَّيُولِ عَلَى شَفَا جَرَفِ هَارٍ، فَإِذَا شَاهَدُوا سَيْلَ الحَقَائِقِ يَوْمَ تَبَلَّى السَّرَائِرُ، وَكشَفَ المُسْتَوْرَ، وَبَعَثَ مَا فِي القُبُورِ، وَحَصَّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، تَبَيَّنَ حَيْثُ لَمِنَ كَانَتْ بِضَاعَتُهُ النِّفَاقُ أَنَّ حَوَاصِلَهُ الَّتِي حَصَّلَهَا كَانَتْ كَالسَّرَابِ ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، إذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية. فهذه والله أمارات النفاق، فاحذروا أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية:

إِذَا عَاهَدُوا لَمْ يُوْفُوا، وَإِنْ وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِنْ قَالُوا لَمْ يَنْصِفُوا، وَإِنْ دَعُوا إِلَى الطَّاعَةِ وَقَفُوا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالرَّسُولُ صَدَفُوا، وَإِذَا دَعْتَهُمْ أَهْوَأَوْهُمْ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا وَانصَرَفُوا. فَذَرَهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الهَوَانِ، وَالحَزِي وَالخُسْرَانِ، فَلَا تَتَّقْ بِعَهْدِهِمْ، وَلَا تَطْمَئِنِّ إِلَى وَعُودِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِيهَا كاذِبُونَ، وَهُمْ لَمَّا سِوَاهَا مُخَالِفُونَ، ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا

اللَّهُ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿التوبة: ٧٥-٧٧﴾^(١).

وقال رَجْمَهُ اللَّهُ فِي تفسيره لقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءِ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]: «الصَّيْبُ: هو المطر الذي يُصوب من السماء، أي ينزل منها بسرعة، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك ذلك منه، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا خطر لها، فلم يمنعهم منها مما فيه من الرعد والبرق، وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والمثالثات التي حذر الله بها من خالف أمره، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كجهاد الأعداء والصبر على اللأواء، وكان حظ المنافق من ذلك الصَّيْبِ سحَابُهُ ورعوده وبروقه فقط، ولم يعلم ما وراءه فاستوحش بما أنس به المؤمنون، وارتاب بما اطمأن به العالمون، وشك فيما تيقنه المبصرون.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة وظنون كاذبة، جالت فيها وصالت، وقامت فيها وقعدت، واتسع فيها مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملاأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء، والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم والمكثرين لسوادهم عددًا، وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرًا.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (١/٦٠٧-٦٢٥) باختصار.

ولعموم البلية بهم، وضرر القلوب بكلامهم، هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم، ولم يزل عز وجل يقول: ﴿ومَنهم...﴾ ﴿ومَنهم...﴾ ﴿ومَنهم...﴾ حتى انكشف أمرهم وبانت حقائقهم، وظهرت أسرارهم^(١).

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي بَيَانِ طَبَقَاتِ الْمُكَلِّفِينَ: «الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء هم المنافقون وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخفّ، وهم فوقهم في درجات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، لهذا قال تعالى: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَأَحْذَرُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وفي هذا إثبات أولوية العداوة وأحقيتها لهم.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، وهم قد كفروا عن علم ومعرفة لمخالطتهم المسلمين، لهذا قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال فيهم: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال في الكفار: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر - ثم عمي، وعرف ثم

(١) الوابل الصيب، ابن القيم (١٢٨-١٣٠) باختصار.

تجاهل، وأقرّ ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشد كفرًا وأخبث قلبًا،
وأعتى على الله ورسوله، فاستحق الدرك الأسفل من النار.



صفات المنافقين

من تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل؛ فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك، وبالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، والطغيان، واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى، والحيرة، والكسل عن عبادته، والرياء، وقلة ذكره، والتردد وهو التذبذب بين المؤمنين والكفار، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً، وبالكذب وبغاية الجبن، وعدم الفقه في الدين، وعدم العلم، وبالبخل، وعدم الإيمان بالله وباليوم الآخرة، والريب، وبأنهم مضرّة على المؤمنين لا يحصل لهم بصحتهم إلا الشر. من الخبال، والإسراع بينهم بالشر- وإلقاء الفتنة، وكراحتهم لظهور أمر الله ومجيء الحق، وحزנם بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، والفرح بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراحتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعبيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا، وإن منعوها سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه، وبقصدهم إرضاء المخلوقين دون رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، ويتحيلون على تعطيل فرائض الله بأنواع الحيل، وأنهم رجس والرجس من كل شيء أحبته وأقذره، وبأنهم فاسقون وبأنهم يؤوون من حارب الله ورسوله، ويتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم،

ويتربصون بالمسلمين الدوائر، وإذا عرضت عليهم التوبة والاستنفار أبوهما وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها.

ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ: الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعاً، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء.

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس وقليل ما هم! وليس على الأديان أضرّ من هذا الضرب من الناس، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طريق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، ووعدوهم ومنّوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنّوهم الويل والثبور! فكم لهم من قتل ولكن في سبيل الشيطان، وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان، وأسير لا يرجى له الخلاص، وفارّ من الله لا إليه، وهيئات، لات حين مناص!

فهم والله قطّاع الطريق حقاً، فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذاراً منهم حذاراً، وهم الجزّارون، ألسنتهم شفّارُ البلايا، ففراراً منهم فراراً.

قد جعلوا على أبواب جهنم دعاءً إليها، فبُعداً للمستجيبين! ونصبوا شباكهم حوالها على ما حفّت به الشهوات، فويل للمغتربين! نصبوا الشباك، ومدّوا الأشرار، وأذن مؤذّنهم بأشبه الأنعام: حي على الهلاك، حي على التباب!

فاستبقوا يهرعون إليه، فأوردتهم حياض العذاب لا الموارد العذاب»^(١) عياداً
بالله تعالى.

وبعد: فحقيق بكل مؤمن أن يملأ قلبه إخلاصاً وتوحيداً، وأن يسلك إليهما
كل سبيل، ضارع إلى ربه أن يأخذ بقلبه ويده لصراط المنعم عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم رحماك رحماك.



(١) طريق المهجرتين، ابن القيم (٢/ ٨٧٨-٨٩٢) باختصار.

وقفة تأمل

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

«لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها، لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إباتها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزّها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربه وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكلّيته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمّه عليه، فاستسلم له وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرّه وعلايته فقال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلّص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلّها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرّها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه لكنه شهد بقلب مشحون

بالشهوات وحبّ الدنيا وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأٌ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان»^(١).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الفوائد، ابن القيم (٧٧، ٧٨).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

(١٣) حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى	(١) مقدمات في أقوال وأعمال القلوب
(١٤) الثقة بالله تعالى	(٢) التوحيد والإخلاص
(١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى	(٣) العبودية
(١٦) الاستغناء بالله تعالى	(٤) الصدق مع الله تعالى
(١٧) التعلقُ بالله تعالى	(٥) محبةُ الله تعالى
(١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى	(٦) الشوقُ إلى الله تعالى
(١٩) الاعتصامُ بالله تعالى	(٧) الأُسُسُ بالله تعالى
(٢٠) سلامةُ الصدر	(٨) الإرادة
(٢١) العفاف	(٩) العزم
(٢٢) الصبر	(١٠) الرجاء
(٢٣) الرضا	(١١) الرغبة
(٢٤) ...	(١٢) التوكُّلُ على الله تعالى

الجهـد والتنسيق والإخراج الفني

خالد محمد جاب الله

مكة المكرمة - جوال : 0502543917